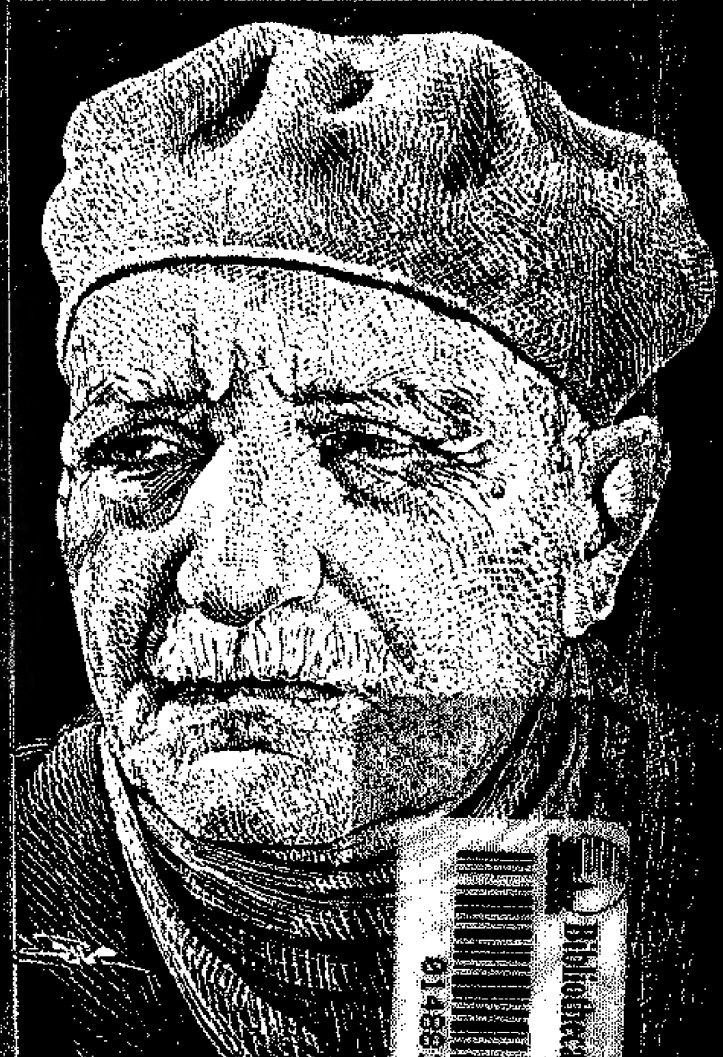
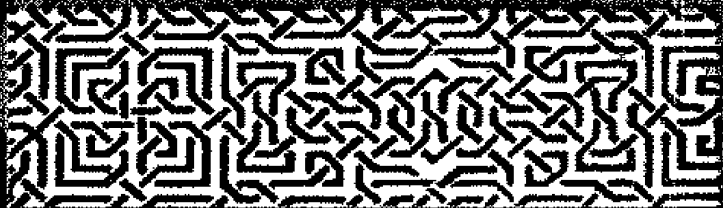


عبدالله بن محمد العتقاد

ابن نواس

الحسن بن هاني

منشورات المكتبة العصرية
بيروت - صيدا



عبداس محمود العقاد

أبو زيد

الحسن بن هاني

المكتبة العصرية
ميدان - بيروت

حقوق الطبع محفوظة

للمكتبة العصرية
مكة - بيروت

تقديم

من أبرز ما وضعه المرحوم عباس محمود العقاد من كتب السيرة كتاب : « أبو نواس ، الحسن بن هانيء » . وقد يظن من يهم بقراءة هذا الكتاب أن العقاد يرمي الى ترجمة أبي نواس ، ونقد أدبه وشعره . والواقع أن بحثه مقصور على دراسة نفسية أبي نواس ، ومزاجه الفطري ، وجلال دخيلة وجدانه مهما اتسمت به من حسن أو سيء ، وخير أو شر . وإذا لجأ أحيانا الى وقائع الترجمة وشواهد الشعر فما ذلك الا من أجل الإبانة عن طبيعته ، والاستمانة على تفسير خصائصه ، والكشف عن مكنونها .

تحدث العقاد في هذا الكتاب أول ما تحدث عن شهرة أبي نواس ، ليس بين الأدباء الذين يقدرّون الشاعر بما أتى به من وجوه الاجادة والابداع ، بل بين العامة من الناس وأشباه العامة . وشهرته عندهم قائمة أولا على أنه « أبو النواس » بتشديد الواو وزيادة الألف واللام للتعريف ، وعلى أنه ثانيا شخصية ذات نوادر وأخبار ، بغض النظر عن أنه ينظم أو لا ينظم الأشعار . ومن مزايا هذه الشخصية عندهم كما تبدو في النوادر والأخبار التي يروونها عنه ، وخاصة في بعض الكتب كالف ليلة وليلة ، سرعة الجواب والفهم بالإشارة ، وإيراد الحوادث بشكل يجمل السامعين يميلون الى الظن بأنه مطلع على المغيبات التي يتحدث عنها وكأنه كان حاضرا لدى وقوعها ، الى غير ذلك من نوادر الظرف واللباقة ، والتلاعب بالكلام ، وحكايات اللهو واللغو التي كثيرا ما تجانب الحياء وتقرب من الفحش والبذاء . وقد طغى هذا الجانب من شهرته على الأدباء العارفين بأدب الفصحى فنسبوا اليه من النوادر والأخبار والحكايات كل مستغرب تحيط به الشبه والظنون .

وفي فصل « النرجسية » ، يبدو لك العقاد في صورة العالم النفسي المتبحر الذي يعلم من أسرار النفس الانسانية ، ومن أساليب التحليل النفسي ما يعلمه علماء النفس المتخصصون في عصرنا الحاضر . وكثيرا ما يعرض لهؤلاء العلماء المحدثين بنقد آرائهم ، وتصويب نظراتهم ، مما يجعلك تميل الى الاعتقاد بأن العقاد ليس كما عرف عنه بأنه عملاق في الأدب والنقد والفلسفة فحسب ، بل هو أيضا عملاق في العلم ، وفي معارف العصر ، على اختلافها ، الى المدى الذي لا يبلغه الا القليل القليل .

وبعد بحث مستفيض في « النرجسية » وسبب تسميتها ولفظها ، وسماتها ومظاهرها ، وتحليل نفسية الواقع تحت أسرها ، والمريض بدائها ، يتناول « نرجسية » أبي نواس بالبحث ، وأثر نشأته وتربيته وطبيعته وبيئته وعشوائه في الصيغة التي استقر عليها ولازمته مدى حياته . وهذه النرجسية تتلخص في أن أبا نواس ككل مصاب بهذه الآفة كان هائما بحب نفسه ، مدلها بعشقتها ، مفتونا بجمالها الذي يخيّل اليه أنه لا نظير له في هذا الوجود . وهذا سر ما كان يتسم به من الشذوذ في تكوينه الجنسي ، ودوافعه النفسية التي جعلته يجاهر بالاباحية مؤثرا الظهور على التستر ، ومعاقرة الخمر والتفنن في وصفها ، والتفزل بالذكور والاناث على السواء .

وتبدو براعة العقاد في التحليل النفسي عند دراسته لشخصية أبي نواس التي يعتبرها شخصية فريدة نموذجية . وهي في واقعها تختلف اختلافا كبيرا عن شخصية أبي النواس التي أسبغها عليه العامة وأشباه العامة . ويرد تكوين هذه الشخصية الى عدة عوامل منها « نرجسيته » التي فطر عليها ونمتها نشأته وبيئته التي عاش فيها . ومنها تكوينه الجسدي الذي يتألق فيه جمال جسده ووجهه ، وحسن بدنه ، مع لوازم أخرى مثل اللثة وبعة الصوت ، والصفرة أو الذؤابة المرسلّة من رأسه فجعلته في صفه شبيها بالبنت . ومن عناصر هذه الشخصية تربيته البيتية ، فقد كان في كفالة أمه التي أحاطته بكل وسائل التدليل لأنه وحيدها . ولم ينج من مغامز أخصامه الذين كانوا يعيرونه بأنها كانت تجمع في بيتها بين الفواني وطلابهن . أما والده فكان مجهول النسب ، وكان هذا مغمزا آخر يضاف الى ما نسبوه

الى أمه مما ولد فيه عقدة نفسية انحدرت به الى أسفل دركات المهانة ، وقادته الى التورط في مستنقع الاباحية المطلقة .

ولبيئة المجتمع أثر لا ينكر في نسج خيوط الشخصية ، فقد فتح أبو نواس عينيه على الدنيا العريضة في مدينة البصرة ، وهي فرضة العالم كله في ذلك الزمان ، ومثابة الطلاب والقصاد من كل بلد ، وفيها محاسن الحضارة ومساوئها معروضة لمن يريد هذه أو تلك فيصيب فيها ما يبغيه من العلم والأدب ، أو من اللهو وأفانين الفساد . ومن البديهي بحكم النزعة الاباحية في أبي نواس أن يفترف من بؤرة المفساد ما يربو كثيرا جدا على ما وعاه من الثقافة والخلق الحميد . وحالة ذلك العصر السياسية ، وحالته الثقافية لا جرم تركتا في نفس أبي نواس انطباعات لم يكن منها مهرب . فقد كانت الحالة السياسية مضطربة اذ سقطت فيه دولة بني أمية وقامت دولة بني العباس ، وفيه احتدم الصراع بين العلويين والعباسيين ، واشتد التنافس بين الأخ وأخيه في سبيل الخلافة ، وذر قرن الشعوبية التي فرقّت بين الشعوب الاسلامية ، وزرعت بذور الثورة بين العناصر المختلفة مما ألقى في روح أبي نواس الذي بدأ يعقل ويفهم أن الدنيا كلها شقاق ونفاق ، سداها الاباحية ، ولحمتها الربام . ولم تكن الحالة الثقافية أقل اضطرابا واختلاطا من الحالة السياسية . فقد كانت مدن العراق يومئذ تعج بأهل كل ملة ، وأتباع كل نحلة ، وكثر فيها أصحاب المذاهب المتناقضة في النحو والفقه والفلسفة وعلوم الكلام ، وانتقل الجدل في هذه الأمور من طائفة المتأدبين والمتحدثين الى سواد الناس . وكان يغشي البصرة والكوفة كثير من المجوس والزنادقة كما يفشاهما أهل الهند والصين حاملين معهم عاداتهم وشعائرهم ووسائل جدهم ولهوهم . ولا شك في أن أبا نواس قد تأثر بهذا كله فكان عنصرا من عناصر شخصيته المترجرجة غير المستقرة .

ومن الطريف أن العقاد عقد فصلا في كتابه هذا تحدث فيه عن الشيطان . وقد حداه الى ذلك أن أبا نواس كان كثير اللهج بذكر الشيطان ، كثير التعويل عليه في غواياته ومغامراته . بيد أنه كان للشيطان ذكر عند غير أبي نواس مما جعل منه نماذج مختلفة لكل نموذج منها غرض يسعى اليه ، ومجال يعمل فيه .

فهناك شيطان شاعر الجاهلية الذي يصحب الشاعر ويوسوس له بدقائق المعاني ، وخفايا الأفكار التي لا ينفذ اليها بغير معونة الجن . ولكن هذا الشيطان لا شأن له بوساوس الضمائر ووساوس الأخلاق ، فهو لا يعني أصحاب الدراسات النفسية ، ولا دخل له في الوساوس المرضية . وهناك الشيطان الذي يصفه الشاعر على الصورة التي يتخيلها ويجعله رمز الكبرياء والتمرد كما فعل الشاعر الانكليزي « ملتون » في فردوسه المفقود ، و « كروتشي » الشاعر الايطالي في نشيده الى ابليس . وقد صور كل منهما شيطانه متكبرا ثائرا لأنهما عاشا في ايان ثورة عنيفة . و « جيتي » شاعر الألمان ، صاحب رواية « فوست » صور في روايته هذه شيطانا يصنع اكسير الحياة ليطيل به العمر ، ويرد به الشباب الى الشيوخ ، ويساوم به على الضمائر والأرواح ، فمن باعه الحياة الأبدية أخذ بديلا منها المتعة والقوة والسيطرة بالمعرفة في حياته الأرضية .

وتخيل الشاعر الشرقي « السعدي » في بعض أحلامه صورة أخرى للشيطان أظهره فيها فاتنا وسيما لا قبيحا دميما كما قال عنه أبناء آدم . ولا شك في أنه لم يصور الشيطان على تلك الصورة التي حلم بها الا بعد أن رأى الشياطين من الانس في أجمل صورة ، وقاس الأمر بعقله فخطر له أن الشيطان خادع محتال ، وأنه لن يخدع الناس ويستهو بهم بوجه يقابلونه بالنفور والاعراض .

أما شيطان أبي نواس فيختلف كل الاختلاف عن الشيطان الذي يعرفه الناس ويجمعون على أن مهمته الوحيدة في هذه الدنيا هي الاغراء بالمعاصي والذنوب ، وتضليل كل مهتد وجره الى الانغماس في حماة الذنوب . شيطان الناس أمر يوسوس في صدور الناس وينزغهم لينحدروا في مزالق الشرور . أما شيطان أبي نواس فهو شيطان خاص به ، ملازم له ، يأمره هو فيأتمر ، ويدله على الميدان الذي يجب أن يعمل فيه فيطيع صاغرا مختارا من غير تمنع ولا تردد ، فاذا أغرى الشيطان الناس بشرب الخمر ، فذلك شأنه ولا حق لأحد في أن يحول بينه وبين ذلك ، ولكنه مطالب عند أبي نواس بأن يكف عنها عذاله وأخصامه وأولئك

الذين يأنف ويتمال عن مجاراتهم اياه في تعاطيها ومعاقرتها •
 وكأنما خلق الشيطان لمراعاة المزاج النرجسي الذي يمتاز به
 أبو نواس ، هذا المزاج الذي من دأبه الدلال والتأبي وفرض
 الانقياد على كل من يتصدى له •

ولما كان للخمر مكان مرموق في حياة أبي نواس ، ودار عليها
 جل شعره ، فقد خصها العقاد بفصل ذكر فيه البواعث التي
 حملت أبا نواس على معاقرتها وادمانها وحصر هذه البواعث في
 ثلاثة : أولها العقدة النفسية التي تولدت لديه من جرم الغضاضة
 التي كان يشعر بها من ناحية الانتساب الى أم وأب بعيدين عن
 مجال الافتخار حين يتبارى الأنداد في التفاخر بشرف النسب
 وعنفوان الميلاد • ويتضح سر هذا التفاخر اذا علمنا أن العصر
 الذي عاش فيه أبو نواس كانت كل فئة فيه تعتمد على الاشادة
 بنسبها من أجل أن تفوز بالغلبة على منافئها • فمل ذلك
 العباسيون والعلويون والشعوبيون حتى أصبح التفاخر بالأنساب
 سمة ذلك العصر ، والوسيلة التي تثبت بها كل فئة جدارتها
 بموضع الصدارة •

وثاني هذه البواعث ما يعترى صاحب الطبيعة النرجسية
 من نوبات السامة كلما خلا الى نفسه ، وفرغ من العمل ان كان له
 عمل يشغله • والطبيعة النرجسية تستثقل الوقت ، وتضجر من
 طوله ، فتلجأ في دفع هذا الضجر الى كل ما يشغل ويلهي ، وينبه
 ويستثير ، وكل ذلك مائل في الخمر وحلول ادمانها •

وثالث هذه البواعث التي دفعت أبا نواس الى ادمان الشراب
 باعث مرجح الاحتمال ، وهو سوء العيش ، والفاقة التي تحول
 دون حصول الجسم على الغذاء الجيد الكافي ، وتوفير الحركة
 والنشاط لكل جارحة فيه •

ولا شك أن من متممات شخصية أبي نواس شاعريته ، ولئن
 اختلفت الآراء في بعض مزاياه فلا خلاف في أنه شاعر كبير لفت
 بشعره انتباه أنداده من الشعراء ، وحمل الأدباء والمتأدبين
 والنقاد ، في القديم والحديث ، على تذوق شعره ، وامعان النظر
 فيه ، للدلالة على ما يشتمل عليه من مميزات وماخذ • ولما كان
 الشعر فنا ، والشاعر فنانا ، كان لا بد أن يكون لكل شاعر

مذهب في الفن يتلازم مع مزاجه ، وشمائله العقلية والنفسية • أما طبيعة أبي نواس الفتية فانها ، في نظر العقاد ، تقوم على الولوع بالعرض والظهور ، وشفقه باغاطة الناس ، والاستخفاف برأيهم ، لأنهم أهون لديه من أن يمتنع عن لذة من اللذائذ مجلبة لمرضاتهم ، ولأنه يؤثر مذمتهم واستنكارهم على ثنائهم واطرائهم • وتبدو هذه الطبيعة واضحة جليلة في قصائده الخمريات التي يؤثر فيها الجهر بشرب الخمر على الاسرار ، وفي غزله الاباحي المتهتك الذي يخدش أسماع ذوي الوقار قبل أسماع العذارى ، ويستوي فيه عنده التغزل بالغيد الحسان ، والذكور من الولدان ، كما تبدو في قصائد الزهد والنسك التي لا ينكر شعوره الصادق فيها ، الا أنها ، على كل حال ، تدesh عارفيه وتصدمهم بما لا يتوقعونه من أمثاله من الاباحيين المتهتكين •

واخيرا يعرض العقاد لمقيدة أبي نواس فيقرر أنه ليس ، مع مجونه ، لا دينيا ولا جاحدا • ويقصد باللاديني ذلك الذي لا يحفل بالدين ، ولا يشغل عقله به ، ومكانه من باطنه خوام لا يتسع لايمان ولا انكار • أما الجاحد فهو الذي ينكر دينسا بعينه لا تطمئن نفسه الى عقائده وشعائره ، ولا يرتضيها عقله ، ولكنه يتشوف دائما الى دين غير الأديان التي يعرفها جميعا ، يسمو عليها ، ويكون له المثل الأعلى الذي يحلم به ويتوق اليه • وأبو نواس لم يكن من اللادينيين بدليل ما يحفل به شعره من الاشارة الى الأديان واللهج بها • ولم يكن جاحدا لدينه لأنه ، كما يلاحظ من قراءة شعره ، لا يتوانى عن ذكر الدين والعبادة ، حتى في خمرياته وغزلياته • وهذا يشير الى أن الدين يشغل حيزا هاما من تفكيره ، ومن أكثر من ذكر شيء دل على اهتمامه به ، واتجاه وعيه اليه • أما التناقض الذي يبدو في سيرته متمثلا في شعوره الديني من جهة ، وتهتكه واباحيته من جهة أخرى ، فيمكن تعليله بأن أبا نواس كان يمتنق مذهب فرقة المرجئة التي ظهرت منذ أيام الخلفاء الراشدين ، وكرهت الخوض في الخلاف بين أجلاء الصحابة ، وتركت الأمر لله يحكم فيه يوم الدين ،

وذهب بعض كبارها الى أن الايمان لا تضر معه سيئة ، وأن
 الشرك لا تنفع معه حسنة * وطبيعي أن تصادف هذه العقيدة
 هوى في نفس أبي نواس فراح يشيد بالقول والعمل أن الكبائر
 لا تسلك صاحبها مع الكفار ، ولا تحرمه الرجاء في عفو الله *
 واننا لا نرى مندوحة عن التنويه بفضل السيد شريف
 الأنصاري صاحب المكتبة المصرية في صيدا ويروت الذي ألزم
 نفسه مهمة إعادة الطبع لمعظم آثار عملاق الأدب المرحوم عباس
 محمود العقاد ، فجزاه الله عن كل مثقف عربي أحسن الجزاء *
 صيدا - منيف لطفي

أبو نواس عند العامة

شهرة أبي نواس

اشتهر في الأدب العربي عشرات من الشعراء والأدباء ، يعرفهم قراء الأدب ورواته ، ولا تصل أسماؤهم — فضلا عن أخبارهم — الى الأميين وأشباه الأميين من جهلاء العامة ، ماعدا شاعرا واحدا اشتهر من بين هؤلاء الشعراء والأدباء في بابيه فسمع به الأميون وأشباه الأميين ، واتخذوا من اسمه علما على كل من يشبهه في صورته عندهم ، وصحفوا ذلك الاسم تصحيفا يدل على مصادره الأمية ، فعرفوه باسم «أبي النواس» بتشديد الواو وزيادة الالف واللام للتعريف على الدوام

ولم يكن شذوذ هذا الشاعر عن هذه القاعدة لسهولة شعره ، فان الأميين الذين يتناقلون أخباره ونوادره لا ينقلون بيتا واحدا من شعره ولا يروونه مصحفا أو بغير تصحيف ، وانما يعرفون الشاعر « شخصية » ذات أخبار ولا يعرفونه قائلًا ينظم الاشعار

ولم تكن هذه الشهرة أيضا لقرب عهده وقصر الزمن بينه وبين رواته المتأخرين ، فان النواصي عاش في القرن الثاني للهجرة ، وهؤلاء الأميون الذين يتناقلون أخباره المزعومة قد يجهلون أسماء الشعراء والأدباء في عصرهم أو هم يجهلون على التحقيق أسماء الشعراء والأدباء بعد القرن الثاني للهجرة بلا استثناء ، ما عدا هذا الاستثناء

ولكن هذا الاستثناء لم يكن على أية حال مصادفة لغير سبب ، كما سنرى في موضع البيان عن أسباب هذه الشهرة عند نشأتها الاولى ، ومتى وجدت الشهرة فهي قابلة بعد ذلك للاضافة والزيادة ، ولو من غير القبيل الذي نشأت من أجله في مرحلتها الاولى

وإذا كان هذا شأن الأمين في التحدث بأخبار الشاعر المجدود فلا عجب أن يتحدث به أشباه الأمين وهم أقرب إلى الأدب المقروء في الكتب والقدرة على فهم القليل منه ، ان فاتهم فهم أكثره وأصحه

ونعني بأشباه الأمين أولئك الذين يقرءون ولا يقدرّون على تصحيح نسبة الكلام واستقصاء وجوه التصحيح . فاذا سمعوا كلاما لشاعر مشهور غيره ، جاز عندهم أن يكون لهذا أو لذاك ، وان كان الفارق بينهما واضحا لنقاد الأدب ورواته المتثبتين

هؤلاء القراء أشباه الأمين يعرفون النواصي كاخوانهم الأمين أي يعرفونه لأنه شخصية ذات أخبار ، وقلما يعنيه من ذلك الشعر الذي ينسبونه إليه سواء صحت نسبته إليه أو إلى غيره ، أو كان مختلفا ملفقا لا تصح نسبته إلى أحد من الشعراء المشهورين

والغالب على هذه الشخصية أنها شخصية النديم اللاهي — «الحاذق» ... ونكاد نكتبها «الحذق» بالدال وعلى غير صيغة اسم الفاعل ، لأن «الحداقة» كما يفهمها العامة هي أم الصفات التي تغلب على «النواصي» في روايات أشباه الأمين ومنها سرعة الجواب والفهم بالإشارة ، أو الفهم الذي يوشك أن يكون اطلاعا على الغيب ، مع اللباقة في اللعب بالكلام أو اللعب بالافهام على حسب المقام ، ولا سيما مقام اللهو واللغو ونبد الحياء والملام ..

وليس أشهر من الأدب المنسوب إلى أبي نواس في الكتب التي تروج بين أشباه الأمين ، ومنها ألف ليلة وليلة واعلام الناس فيما جرى للبرامكة مع بني العباس ، وقليله يغنى عن الكثير

« قيل ان أمير المؤمنين هارون الرشيد أرق ذات ليلة فقام يتمشى في قصره بين المقاصير فرأى جارية من جواريه نائمة فأعجبته فداس على رجلها ، فاتبهت فرأته ، فاستحييت منه وقالت : يا أمين الله ما هذا الخبر ؟ فأجابها يقول :

قلت ضيف طارق في أرضكم هل «تضيّفوه» إلى وقت السحر

فأجابت بسرور سنيدي أخدم الضيف بسمي والبصر
فبات عندها الى الصباح ، فلما كان الصباح سأل : من بالباب من
الشعراء ؟ قيل له : أبو نواس ، فأمر به فدخل عليه ، فقال : هات ما عندك
على وزن يا أمين الله ما هذا الخبر ... فأنشد يقول :
طال ليلي وتولاني السهر فتفكرت فأحسنتم الفكر
الى أن يقول :

فاذا وجه جميل مشرق زانه الرحمن يزرى بالقمر
فلمست الرجل منها موطئا فدنيت مني ومسدت بالبصر
وأثارت لي بقول مفصح يا أمين الله ما هذا الخبر ؟
قلت ضيف طارق في أرضكم هل «تضيفوه» الى وقت السحر
الى آخر البيتين ..

فتعجب أمير المؤمنين وأمر له بصلة
« وذكر الخطيب في بعض مصنفاته أن الرشيد دخل يوما وقت الظهر
الى مقصورة جارية تسمى الخيزران على غفلة منها ، فوجدها تقتل
فلما رآته تجللت بشعرها حتى لم ير من جسدها شيئا ، فأعجبه منها ذلك
الفعل واستحسنه ، ثم عاد الى مجلسه وقال : من بالباب من الشعراء ؟
قالوا : بشار أبو نواس . فأمر بهما فحضرا وقال : ليقبل كل منكما أياتا
توافق ما في نفسي ، فأنشأ بشار يقول :

تحببتكم والقلب صار اليكم بنفسى ذاك المنزل المتحجب
الى أن يقول :

وقالوا تجنبنا ولا قرب بيننا وكيف وأتسم حاجتي أتجنب
على انهم أحلى من الشهد عندنا وأعذب من ماء الحياة وأطيب
فقال الخليفة أحسنت ، ولكن ما أصبت ما في نفسي ، فقل أنت يا أبا
نواس . فجعل يقول :

نضت عنها القميص لصب ماء فورد خدها فرط الحياء
مما تلت الهواء وقد تعمرت بمعتدل أرق من الهواء

ومدت راحة كالماء منها الى ماء معسـد في اثناء
 فلمـا ان قـضت وطرا وهمت على عجل لتأخذ بالرداء
 رأت شخص الرقيب على اقتراب فأسبلت الظلام على الضياء
 وغاب الصبح منها تحت ليل فظل الماء يجسرى فوق ماء
 فسبحان الاله وقد براها كاحسن ما تكون من النساء
 فقال الرشيد : سيفا ونطعا يا غلام ! قال أبو نواس : ولم يا أمير
 المؤمنين ؟ قال : أمعنا كنت ؟ قال : لا والله . ولكن شيئا خطر بيالى ..
 فأمر له بأربعة آلاف درهم !
 وأمثال هذه الحكايات كثير ، حد « الحذاقة » فيها — أو « الحداقة »
 — هو حدما عند أشباه الأميين .. وهو شرطهم في أرباب الفن الى هذه
 الأيام ..

أخباره عند الأدباء

وغنى عن القول أن أخبار النواسى ليست مقصورة على الأميين وأشباه
 الأميين ، ولكن اهتمام الاميين وأشباه الاميين بها هو وجه الغرابة في هذا
 الباب من الادب ، واما العارفون بأدب الفصحى فلا وجه للغرابة في
 اهتمامهم به وبأمثاله من موضوعات الآداب والفنون
 على أن الامر في هذه الناحية لا يخلو من غرابته التى تخص أخبار أبى
 نواس بخاصة ، لم يشاركه فيها أعلام الشعر والثقافة الفنية ، فان رواة
 الادب الصحيح لا يهتمون بأبى نواس وأنداده من الاعلام على نحو
 واحد . بل يلوح عليهم أنهم يودون لو يشركونه بسهم في سيرة كل أديب ،
 ويحبون اذا نسب الخبر اليه أو الى غيره أن يؤثره به لو استطاعوا وأن
 يجعلوه من مروياته ومأثوراته دون المرويات والمأثورات عن سواء
 فصاحب العقد الفريد — ابن عبد ربه — من أعلم الرواة بأخبار
 الشعراء ... ولكنه يروى عن أبى نواس بعض الاخبار التى نقلناها فيما
 تقدم عن الأميين وأشباه الأميين ، ويضيف اليه أخبارا مشهورة عن ذى

الرمة وصاحبه مية ، ونعنى بها تلك الأخبار التي تدور حول البيتين
المنسوين اليه وهما :

على وجهه مى مسحة من ملامحه
وتحت الثياب العر^(١) لو كان باديا
ألم تر ان الماء يخبث طعمه
ولو كان لون الماء فى العين صافيا

وقد سئل ذو الرمة عنهما فأنكرهما وقال : وكيف أقول هذا وقد قطعت
دهرى وأفنيت شبابى أشبب بها !

فيأتى صاحب العقد الفريد ولا يبالى كذب الرواية من أصلها ويحتفظ
بها ليسندها الى أبى نواس بلسان أبى بكر الوراق ، وهذا مقال من
المقامات الفنية التي يؤلفها خاصة الأدباء تأليفا ليذكروا فيها ملحمة أو
طرفة عن ذلك الشاعر المجدود

روى عن أبى بكر الوراق عن الحسن بن هانىء أنه قال : حجبت مع
الفضل بن الربيع حتى اذا كنا ببلاد فزارة ، وذلك ابان الربيع ، نزلنا منزلا
بازاء ماء لبنى تميم ذا روض أريض^(٢) ونبت غريض ، تخضع لبهجته الزرابي^(٣)
المبثوثة والنمارق المصفوفة ، فقرت بنصرتها العيون وارتاحت الى حسنها
القلوب وانفرجت لبهاثها الصدور ، فلم نلبث أن أقبلت السماء فانشق
غمامها وتدانى من الارض ركامها ، حتى اذا كانت كما قال أوس بن حجر
حيث يقول :

دان مسف فوق الارض هيدبه يكاد يدفعه من قام بالراح

همت برذاذ ثم بطش ثم بوابل ، ثم أقلعت وغادرت الغدران مترعة
تندفق ، والقيعان تتألق ، رياض موقنة ونوافح من ريحها عبقة ، فسرحت
طرفى منها فى أحسن منظر ، ونشقت من رباها أطيّب من المسك الاذفر ،
فلما انتهينا الى أوائلها اذا نحن بخباء على بابه جارية مشرقة ، ترنو بطرف
مريض الجفون ، وسان النظر ، أشعرت حماليقه فترة وملئت سحرا ،
فقلت لزيملى : استنطقها .. قال : وكيف السبيل الى ذلك ؟ قلت

(١) العر : الجرب . (٢) روض أريض : كثر كلاء ونباته . (٣) الزرابي :

جمع زربية وهي الوسادة وكل ما بسط واتكئ عليه .

استسقىها ! فاستسقاها ، فقالت : نعم ونعما عين ، وان نزلتم فعلى الرحب
والسعة ، ثم مضت تتهادى كأنها خوط^(١) بان أو قضيب خيزران ، فراعنى
ما رأيت منها ، ثم أتت بماء فشربت منه وصبيت باقيه على يدي ، ثم قلت :
« وصاحبى أيضا عطشان ! .. فأخذت الاناء فذهبت فقلت لصاحبى : من
الذى يقول :

إذا بارك الله فى ملبس فلا بارك الله فى البرقع
يريك عيون الدمى غيرة ويكشف عن منظر أشنع
.. وسمعت كلامى فأتت وقد نزع البرقع ولبست خمارا أسود وهى
تقول :

ألا حى ربى معشر قد أراهما أقاما فما أن يعرفا مبتغاهما
هما استسقىا ماء على غير ظمأة ليستمتعا باللحظ ممن سقاها
فشبهت كلامها بعقد در وهى فاتت ، بنعمة عذبة رخيمة ، لو خوطب
بها صم الصلاب لانبجست ، مع وجه يظلم فى نوره ضياء العقول ، وتلف
من روعته مهج النفوس ، وتخف فى محاسنه رزاة الحليم ويحار فى بهائه
طرف البصير ..

فدقت وجلت واسبكرت وأكملت فلو جن انسان من الحسن جنت
فلم أتمالك أن خرت ساجدا ، فأطلت من غير تسبيح ، فقالت : ارفع
رأسك غير مأجور ! لا تدم بعدها برقما فلربما انكشف عما يصرف الكرى
ويحل القوى ويطيل الجوى ، من غير بلوغ ارادة ولا درك طلبه ولا قضاء
وطر ، ليس الا للحين المجلوب والقدر المكتوب والامل المكذوب ، فبقيت
والله معقول اللسان عن الجواب حيران لا أهتدى لطريق ، فالتفت الى
صاحبى وقال : ما هذا الجهد بوجه برقت لك منه بارقة لا تدري ما تحته
أما سمعت قول ذى الرمة :

على وجه مى مسحة من ملامحه وتحت الثياب العر لو كان باديا
فقلت : أما ما ذهبت اليه فلا أبالك . وانى لأنا بقول الشاعر :
منعمة حوراء يجرى وشاحها على كشح مرتج الروادف أهضم

(١) خوط بان : الخوط بالضم : الفصن الناعم لسننه . (٢) الروادف :
جمع ردف وهو الكفل وعجيزة المرأة .

لها أثر صاف وعين مريضة وأحسن ابهام وأحسن معصم
 خزاية الاطراف سعدية الحشا فزارية العيين طائية الفم
 أشبه من قولك الآخر .. ثم رفعت ثيابها حتى بلغت بها نحرها وجاوزت
 منكبيها ، فاذا قضيب فضة قد أشرب ماء الذهب . ثم قالت : أعرا ترى
 لا أبالك ؟ قلت : لا والله ، ولكن سبب القدر المتاح ، ومقربى من الموت
 الذباح^(١) يضيق على الضريح ويتركنى جسدا بغير روح
 فخرجت عجوز من الخباء ، فقالت له امض لشأنك ، فان قتلها مطلول
 لا يودى وأسيرها مكبول لا يفدى ، فقالت لها : دعيه . فان له مثل قول
 غيلان ذى الرمة :

وان لم يكن الا تعطل ساعة قليلا ، فانى نافع لى قليلها
 فقلت المعجوز وهى تقول :
 وما نلت منها غير انك «واصل» بهينيك عينيها فهل ذاك نافع ؟
 فنحن كذلك حتى ضرب الطبل للرحيل ، فأنصرفت بكمد قاتل وكرب
 خابل وأنا أقول :

واحسرتا مما يكن فؤادى أزف الرحيل بعبرتى وبعادى
 فلما قضينا حجنا وأنصرفنا راجعين مررنا بذلك المنزل وقد تضاعف
 حسنه ونمت بهجته ، فقلت لصاحبى : امض بنا الى صاحبتنا ، فلما أشرفنا
 على الخيام وصعدنا ربوة ونزلنا وهدة اذا هى تتهادى بين خمس ما تصلح
 أن تكون خادمة لادنانهن وهن يجنين من نور ذلك الزهر ، فلما رأيننا
 وقفن وقلنا : السلام عليكن . فقالت من بينهن : وعليك السلام ، أأنت
 صاحبى قلت : بلى ! قلن : وتعرفينه ؟ قالت : نعم ، وقصت عليهن القصة
 ماخرمت حرفا .. قلن : ويحك ! أما زودته شيئا يتعلل به ؟ قالت : بل زودته
 لحدا ضامرا وموتا حاضرا ! فأنبرت لها أنضرهن خدا وأرشفهن قدا ،
 وأسحرهن طرفا وأبرعهن شكلا ، فقالت : والله ما أحسنت بدءا ولا
 أجملت عودا ولقد أسأت فى الرد ولم تكافئيه على الود ، فما عليك لو
 أسعفته بطلبته وأنصفته فى مودته ؟ وان المكان لخال ، وان معك من لا ينم

(١) الذباح : بضم الذال : وجع فى الحلق ويقال موت ذباح كما يقال :
 موت ذؤام .

عليك .. فقالت : أما والله لا أقبل من ذلك شيئاً حتى تشركيني في حلوه ومره ! قالت لها : تلك اذن قسمة ضيزى^(١) ! تعشقين أنت وأوخذ أنا ؟ .. قالت أخرى منهن : قد أطلتن الخطاب في غير ارب فسلن الرجل عن نيته وقصده وبغيته . فلعله لغير ما أتما فيه قصد . فقلن حياك الله وأنعم بك عينا ، ممن ؟ ومن أنت ؟ وما تعاني ؟ والام قصدت ؟ قلت أما الاسم فالحسن بن هانيء من اليمن ثم من سعد العشيرة ، وخير شعراء السلطان الاعظم ومن يدنى مجلسه ويتقى لسانه ويرهب جانبه ، وأما قصدي فتبريد غلة واطفاء لوعة قد أحرقت الكبد وأذايتها قالت : لقد أضفت الى حسن المنظر كرم المخبر وأرجو أن يبلغك الله أمنيته وتنال بغيته . ثم أقبلت عليهن فقالت ما واحدة منكن الا ملتزمة مرغبة فتعالين نشترك فيه وتقتارع عليه ، فمن واقعته القرعة منا كانت هي البادئة . فافتترعت فوقعت القرعة على المليحة التي قامت بأمرى ، فملقن أزارا على باب الغار وأدخلت فيه وأبطلت على ، وجعلت أتشوف لدخول احداهن على ، اذ دخل اسود كأنه سارية .. ثم صحت بصاحبي وكان متدانيا .. ووالله ما تخلصت منه حتى خرجنا من الغار ، واذا هن يتضحكن ويتهادين الى الخيمات . فقلت لصاحبي : من أين أقبل الاسود ؟ قال : كان يرعى غنما الى جانب الغار فدعوته فوسوسن اليه شيئاً فدخل عليك .. »



والقصة كلها كما يرى القارئ مقامة مؤلفة ، وتلك علامة على تمكن شهوة الكلام عن الشاعر في سياق الخبر التاريخي أو سياق الاختراع والتأليف ..

وتتم الغرابة بالمصادر الاجنبية القليلة التي عنيت بأبي نواس من جانب الأدب أو من جانب النوادر والاقاصيص الموضوعية ، فانها سايرت مصادر العربية في هذه النزعة وأسندت الى أبي نواس ما حدث وما لم يحدث ، أو ما حدث منه وما حدث من غيره ، ومنها رسالة انجليزية طبعت في احدى الجزر الهندية وأهداها مؤلفها الى ذكرى الاستاذ « برتون »

(١) قسمة ضيزى : جائزة غير عادلة . (٢) أتشوف : تشوف الرجل لكذا : طمع بصره اليه والى الخبر تطلع اليه .

مترجم ألف ليلة وليلة ، وقسمها الى أخبار « أبوكريفية » تشبها بالأخبار التي يدسها بعض الرواة على الكتب الدينية ، والى أخبار خرافية من قبيل الأساطير والغرائب المروية عن عجائب المخلوقات ، وهذه احدى نواتجها « الابوكريفية » ..

« كان أبو نواس يلهو ويقصف بين صحبه فاذا الخليفة يفجؤهم بحضوره ، ويسوءه ما يرى فيصيح بأبى نواس متأففا : ما أراك تصلح الا أن تكون اماما للقوادين وقاضيا للفجرة الفاسقين . فأجابه أبو نواس وهو لا يعيى بالجواب على البديهة : وهل من قضية تعرضونها ؟ فغضب الخليفة وأمر به من الغد حيث دخل الديوان أن يجردوه من ثيابه ويضعوا على ظهره بردعة حمار .. ويطوفوا به بين الخدم والجواري ليسخروا منه ويعبثوا به ثم يسلموه الى الجلاد يطيح برأسه ، ولكن أبا نواس الذي لا يغلب ظرفا وفكاهة لم يزل يلفظ الجوارى بدعابته وطرائف نكاته ، ولم تزل هداياهن تنثال عليه حتى عاد من مطافه ممتلئ اليدين بالمال والجوهر ، ورآه الوزير جعفر البرمكى وهو بهذه الحالة فسأله : فيم كان عقابه ولأى شيء يحصل بردعة الحمار على ظهره ؟ فأجابه في غير مهل : ما من شيء صنعت الا أننى مدحت أمير المؤمنين فخلع على خلعة من خاصة ثيابه . ونقلوا الى الخليفة ما قال فضحك وعفا عنه وأمر له بهدية وخلعة سنية »

وهذه بعض نواتجها التي جمعها المؤلف من افريقية الشمالية : قيل ان الشاعر كان يمشى في جنازة فسأله بعضهم : أيهما أكرم في تشييع الميت ، ان يمشى أمام نعشه أو تتبعه ؟ قال أبو نواس :

لا تكن داخل النعش وسر حيث طاب لك السير

وأمر الخليفة ذات يوم بجلده مائة جلدة لانهم وجدوا معه قارورة خمر فارغة يذهب بها ليلأها

فسأل أبو نواس ، وعلام الجلد يا أمير المؤمنين ؟

قال الخليفة : على الخمر التي ستملا بها القارورة
 قال : اذن فاحكم على بالموت .. لانتى أحمل لسانا قد يكفر بالله
 ورئى أبو نواس يوما سكران يتمايل فى الطريق ، فمجب الناظرون
 وسألوه : ألم تنظر من قبل الى سكران ؟
 قال : ومن أين لى أن أرى السكارى وأنا أول من يسكر وآخر من
 يفيق ١٩ ..

نوادره الأسطورية

أما النوادر الأسطورية فقد جمعها المؤلف من مصادر لا يخطر على بال
 الكثيرين أنها سمعت باسم أبى نواس ، ومنها القبائل التي تسكن سواحل
 افريقية الجنوبية مما يلى زنجبار وتتكلم « اللغة السواحلية » وهى مزيج
 من الزنجية والعربية والهندية والفارسية ، وبعض حكاياتها منقول عن
 أقوام افريقية الاصلاء الذين تدور حكاياتهم على السحرة والكهان
 والعفاريت ..

ويقول المؤلف فى تقديم هذا القسم من كتابه ان شهرة أبى نواس
 وصلت الى هناك مشافهة « وانه يعرف بين السواحليين من أهل زنجبار
 باسم كيبو نواسى وبنواسى وبانواسى وأبا نواسى .. ومن تصوراتهم له
 أنهم يلبسونه شخصية الارنب الذى نعرفه نحن فى ألعاب خيال الظل
 لأنهم يمثلونه سريع الفطنة حاضر الجواب ، ويلبسونه شخصية أخرى
 هى شخصية خيال الظل فى زنجبار ولعله أصل صاحبنا الأرنب . واسم
 هذه الشخصية فى اللغة السواحلية بواليم كرجوش ، وهى كلمة تمت
 الى الأرنب لأنها بالفارسية شرجوش وتعنى الأرنب

« ومقطع « كى » الذى يقدمون به اسم « كيبو نواسى » تصغير لكلمة
 الشاعر فى اللغة السواحلية حيث يتخللونه ضئيل الجسم عظيم الفطنة ،
 ويقال ان اسم النواسى قد أصبح علما على كل من كان عنده جواب
 حاضر لكل سؤال ومخرج قريب من كل ورطة ، أو علم على اللبيب الذى

نقول نحن انه يضحك كثيرا لأنه يضحك أخيرا « (١)

ومن أمثلة هذه الحكايات حكاية أنقذ فيها أبو نواس مسكينا منسولا من برائن تاجر جشع طالبه بموض عن رائحة طعامه . قالوا : « ان تاجرا ذبح معزة ومر به مسكين فجلس الى جانب القدر لعله يستسيغ الخبز انقفار باستشاق رائحتها . ثم لقي التاجر فقال له : انك أيها السيد قد أحسنت الى أمس اذ منحتني رائحة ممزتك فاصطبغت بها هنيئا : فأخذ التاجر بتلايبه وهو يقول له : الآن علمت كيف ضاعت النكهة من لحمها . فقد اختلستها انت اذن ولا ندرى . وساقه الى هارون الرشيد — وقد كان شديد المحابة للتجار — فحكم على المسكين بتفريمه اثنتي عشرة روية يأخذها التاجر ثمنا لنكهة ذبيحته . وخرج المسكين يبكي لأنه لا يملك فلسا من هذه الفرامة ، فوجد أبا نواس في الطريق وعطف عليه أبو نواس حيث علم منه سبب بكائه ، ووعد أن يساعده ، ثم أعطاه اثنتي عشرة روية وأوصاه أن يقدو بها الى السلطان ولا يؤديها له حتى يحضر هو مجلسه . ثم كان الغد فجاء الى المجلس ورأى المسكين يعد الدراهم فأخذها منه وورها على الأرض ، وسأل التاجر : أسمت رئينها ؟ قال نعم ؟ ومد يده الى الدراهم يريد أن يقبضها . فرده أبو نواس وصاح به حسبك . لقد وصل اليك الثمن رئينا برائحة . فاذا كان المسكين قد شبع من رائحة طعامك فأت حرى أن تملأ يدك من رئين دراهمه . وترك الروبيات للمسكين وانصرف الى داره

والى جانب هذه الحكاية وما جرى مجراها حكايات مطولة يقول المؤلف انها تسمع الى الآن بين القبائل الزنجية وتنقل عن غيرها من القبائل التي تتداول طرائف السحرة وأصحاب التعاويذ والكهانات ، ولا ريب أن أبا نواس قد انفرد بهذه الخاصة بين أدباء العربية في جميع العصور ، ولا يقدح في هذه الحقيقة أن الاميين وأشباه الاميين يروون النوادر عن عنترة بن شداد ويضيفون اليه غرائب الشجاعة والاقدام . فان نوادر عنترة بين الاميين

وأشباه الأُميين أقل كثيرا من النواذر النواسية في بابها أو في أبوابها ، فقد أصبحت لها أبواب ولم تنحصر في باب واحد
 ماسر هذه الشهرة المتفردة ؟

سرهما بالايجاز أن أبا نواس قد أصبح عند عارفه الأولين « شخصية نموذجية » أى شخصية تمثل نمودجا اجتماعيا يعيش في كل زمن ، وسر رجحانه على الشخصيات النموذجية من قبيل عنتره بن شداد أن وقائع الشجاعة أندر من وقائع « الحداقة » في المجتمع ، وأنها لا تصادف الناس في كل زمن كما تصادفهم الوقائع التى تدخل في مجال الشخصية النواسية وقد قيل ان الناس مولعون بالتحدث عن الشخصيات النموذجية يضيفون اليها كل خبر من جنس أخبارها

وهذا صحيح .. فقد أضاف الناس كثيرا من أخبار الجود الى حاتم الطائي وهى لم تقع له ولا لأحد من الكرماء المعروفين ، وبعضها قد وقع لأناس آخرين على سبيل التحقيق وكذلك فعلوا بأخبار الحكمة مع لقمان ، وأخبار الشجاعة مع عنتره وأخبار الطب مع بقراط ، وأخبار كل شخصية نموذجية سمعوا بها في زمن من الأزمان

لكن الأصح أنهم يضيفون الى الشخصيات النموذجية ما هو من جنس أخبارها وما ليس من جنسها ، فاذا كان الأمر الأعم أنهم يراعون التناسب في جنس الأخبار فلا يمتنع مع هذا أنهم يضيفون اليها أخبارا أخرى لاتناسب بينها وبين تلك الشخصيات ، ويكفيهم منها أنهم يعرفون علما مشهورا يتكلمون عنه كلما أرادوا التعامل بمعرفة المشهورين

ومن طرائف ما حدث لنا من ذلك ونحن ندرس « الانشاء » في إحدى المدارس الثانوية أن تلميذا نقل في موضوعه عدة أسطر من الشواهد الفلسفية نسبها الى الشاعر ملتون الانجليزى ، واتفق في ذلك الحين أننى كنت معنيا بمعارضة قصائد ملتون على رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ، وكنت أعيد النظر في كل ما كتب ملتون من المنظوم والمنثور ، ولم يسكن

الكلام الذى نسبته التلميذ الى ملتون مما يناسب أقوال هذا الشاعر وموضوعاته ، ولم أذكر أننى رأيت له كلاما مثله ، فلما حققت الأمر علمت أن التلاميذ قد جروا على هذه العادة للتهويل على أساتذة اللغة العربية الذين لا يعرفون لغة أجنبية ، وإن التلميذ رأى أمامه مدرسا عربيا فلم يخطر له أنه يعرف لغة غير العربية ، ولم يخطر له بطبيعة الحال أن ملتون كان موضوع قراءته الوحيد على وجه التقريب فى ذلك الحين ، فادعى ما ادعاه وهو يحسب أنه فى أمان ، وأنه على ثقة من زيادة درجة أو درجتين

ولما سألته على مسمع من زملائه بالانجليزية : أين وجدت هذه العبارة من كلام ملتون ؟ دهش ولم يكذب يصدق أذنيه ، ثم تبين أنه من الجهل بملتون وكلامه بحيث لا يعلم أنه صاحب كتب ومصنفات ، وكل ما عرفه عنه أبيات من المحفوظات سمع أخاه يستظهرها وسمع أن ملتون هو ناظمها ..! وليس أكثر بين العامة والجهلاء من الاحالة على أقوال المشاهير الذين لا يعرفون عنهم شيئا غير أسمائهم ، فمنهم من يحيل على مشاهير عصره ومن يبعث فى التعامل فيحيل على مشاهير العصور الغابرة ، ومنهم من له لباقة الوضع والاختلاق فهو مجتهد فى وضع الأقوال التى ينحلها مشاهير الرجال حسبما يتوهم من مقدرتهم ومأثور أقوالهم ، ولهذا يتفق أحيانا أن تنحرف « الشخصية النموذجية » من دلالتها الأولى الى غير تلك الدلالة ، حتى يتباعد ما بينهما وتصلح كل منهما لتمثيل شخصية نموذجية غير الشخصية الأخرى ..

وعلى هذا النحو انحراف شخصية « لقمان الحكيم » فانها تستحق وحدها دراسة مستقلة من هذه الوجهة دون غيرها ، ونعنى بها دلالة « الشخصية النموذجية » فى العصور المتتابعة وكيف يطرأ عليها الانحراف عن وضعها الأول شيئا فشيئا حتى يصح أن تصبح عنوانا على انسان آخر أو عدة أناس غير صاحبها

ففى مبدأ الأمر عرف لقمان بطول العمر وامتداد الأجل فى أزمنة متعاقبة ثم تأول المتأولون طول عمره بحكمته وسحره وعرفانه سر الحياة والموت ،

وانه بهذه المعرفة قرن عمره بأعمار سبعة نسور كان يربها عنده واحدا بعد واحد حتى انتهى أجله بانهاء أجل النسر السابع فمات معه في لحظة واحدة ، ومن حكمة المواعظ والسحر والعلم بأسرار الحياة تحولت حكمة لقمان « الحكيم » الى الطب والعلاج وغلبت عليه خلة القدماء الذين تعودوا أن يكتنوا عن الناس أسرار صناعاتهم فلا ييؤحون بها الا على قدر ولا يختصون بها غير الصفوة المختارين من تلاميذهم ومريديهم ، ولا شك أن حكاية « ماء اللفت » هي أحدث هذه الأخبار الموضوعة أو المختلفة ، ولكنها مع ذلك حملت معها بقايا العصور الغابرة من أوصاف هذه الشخصية النموذجية كما عرفها على التابع أبناء تلك العصور

وخلاصة الحكاية التي تروى على عدة روايات أن ولي الأمر في عهد لقمان حبسه لغضبه عليه أو خوفه من سحره ومكره ، أو لضنه عليه وعلى الناس بأسرار حكيمته وطبه ، ثم سمع في حبسه بمرض انسان يوشك أن يموت ودواؤه في ماء اللفت ، وشق عليه أن يخالف عاداته أو يخالف أمر الحاكم فلم يشأ أن يبوح بسر الشفاء الا بأسلوب التورية والجناس ، فصاح في سجنه يقول : « مات العليل وما ألفت له دوا » .. فعلم السامع العليم بأسلوبه أن ماء اللفت هو دواء العلة ، فأعطاه الدواء وشفاه

وفي هذه الحكاية مسحة من كل شخصية نموذجية تشكل بها لقمان في تاريخه ، وآخرها شخصية الطبيب التي لم تظهر في العلم الحديث الا حين شاعت تسمية الطبيب بالحكيم ، وشاع التداوى بماء اللفت بين العامة وهم يتداوون به الى اليوم

الشخصية النموذجية

وقد انخرفت « الشخصية النموذجية » التي عرف بها أبو نواس على هذا النحو فصارت في آخر الأمر الى هذا النموذج الأخير ، وذلك هو نموذج الحاذق اللبق السريع الى الجواب المفهم ذى الدراية بالمخارج السهلة من الورطات العسيرة ، وقد كان أبو نواس ولا ريب على حظ من

اللباقة غير قليل ، وكان يحسن الجواب ويتحيل على اللذات ، ولكنه لم يكن آية الآيات في زمنه على سرعة الجواب والخروج من المآزق ، بل لعله كان الى التورط في المآزق أقرب منه الى الدراية بمخارجها ، ولعله كان من أولئك الذين نسميهم في عصرنا « باللخمة » لتعذر الجواب عليه في مواقف الحرج ، فلم يكن يحسن الدفاع عن نفسه حين تتألب عليه التهم بين أيدي الخلفاء والأمراء ، ويروى في أخبار مجونه أنه كان يذهب الى مجالس القيان متعمدا اخجالهن فينقلب الأمر عليه ويخجلنه ويقحمه فلا يحير جوابا ولا يقدر على البقاء في المجلس ، وأبياته في جنان مشهورة حيث يقول :

وان وقفت له كيما يسكلمني

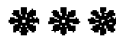
في الموضع الخلو لم ينطق من الحصر^(١)

ولا يكون كذلك من هو مثال « الشخصية النموذجية » في سرعة الجواب وافحام النظراء ، ونحسب أنه لم يكن صالحا بطبيعة تكوينه للافحام والاحراج ، فانه كان - كما تواتر وصفه - الشغ نحيف الصوت مضطرب الأعصاب ، وليس أيسر من احراج مثله بمحاكاة لثغته ونحافة صوته واضطرابه ، وانما آلت « شخصيته النموذجية » الى هذه الصورة بحكم الشهرة وما يفهمه كل جيل من مناسباتها وأحوالها ، فاذا تحولت به الشهرة من شخصيته الأولى الى شخصية الشاعر الملازم للبلاط المتادم للأمراء في ساعات السكر والغضب والنزوات والبدوات فلا جرم تكون النكتة الحاضرة والحيلة السريعة من أدواته وآلاته ، ويصبح تصور الناس لصفات الشاعر هنا تابعا لما يتصورونه من صفات الأمير المطاع ، حتى ليكون من صفاته في بعض الأزمنة أنه يغضب ويأمر بالقتل بغير سبب ، وأنه يدين ويعفو في لحظة واحدة ، وأنه لا يقبل الكلام الا أن يكون من باب الملحة أو الكناية أو الجناس

هذه الشخصية النموذجية « حديثة » ولا ريب طرأت بعد عصر أبي نواس بعدة أجيال ، وسنعرض لحقيقة هذه الشخصية في الفصول التالية

(١) الحصر : العي في المنطق .

ونعمود به الى الأصل الذى نجم منه النموذج الأول ، ولكننا نزيد على ما تقدم فى هذا الفصل أن الشهرة النادرة التى ظفر بها أبو نواس لم يكن مدارها كلها على شخصيته النموذجية ، بل يرجع الكثير منها الى اقترانه بطراز آخر من الشخصية النموذجية لعله أشهر أمثاله فى التاريخ العربى أو فى تاريخ العالم ، وتلك هى شخصية هارون الرشيد الذى قيل عن أبى نواس أنه كان شاعره ونديمه ، وأنه كان يلزمه فى حله وترحاله ، ويطلع على اسرار بيته وخفايا حريمه



ولأمر ما شاعت عن هارون الرشيد هذه الشهرة ، وتعلم من لا يعلم شيئاً عنه أن يتشبه به كلما قضى ليلة لهو ومرح وخيل اليه أنه أحاط نفسه بكل ما يشتهيه المشتهى من الترف والمتاع ، ولم يكن هارون الرشيد بهذه الصفة على التحقيق ، ولم يكن شاهره بهذه السمعة جميعاً يحسنون النية ويجهلون معنى مايفترون ، فربما كان منهم من يحقن على الخلافة العباسية ويختلق المثالب لها ولأقطابها على سبيل الدعوة لخصومها . وربما كانت نوادر ألف ليلة كلها أو جلها من الأخبار الموضوعة للتشهير بدولة والترويع لدولة غيرها ، وقد كان أبو نواس ذريعة للتشهير بالخلفاء فى زمانه قبل تمادى الزمن واختفاء الحقيقة أو نسيانها ، فكان أعداء الخليفة الأمين ابن هارون يعيبونه فلا يجدون فى عيبه ما هو أقدر وأقبح من مصاحبة أبى نواس وتقريبه الى مجلسه ، فلا عجب أن تعمل الدعوة بعد قرن أو قرنين عملاً يجول فيه الملفق والمفتري كل مجاز ، ولا يرى من يعترضه بين العامة اذا جمع فى تهمة واحدة بين الخليفة المثالى من بنى العباس والشاعر المثالى من أبناء عصره ، وهو أبو نواس

والمحافظة على اسم ذى كلمتين أسهل من المحافظة على معالم شخصية انسانية تحتاج المحافظة عليها الى علم بخصائص الطباع والنفوس وعلم بوقائع التاريخ ومطامع السياسة . ولكن الطوائف التى شاع بينها اسم هارون الرشيد كانت كالطوائف التى شاع بينها اسم أبى نواس ، أو كانت

هي اياها كما يقول النحاة . فتناولت بالتحريف اسمه كما تناولت معالم شخصيته ، وسمته هارون الرشيدى كما سمت صاحبنا أبا النواس بنشديد الواو ، ولعل تلقيب هارون الرشيدى قد نشأ فى مصر مع أقوال الدعاة الفاطميين فيها فحسبه المتحدثون والسامعون منسوباً الى رشيد أو سيفت النسبة الى ألسنتهم لأنهم يسمعونها مقترنة بكثير من الأسماء ، ولا نخالها من تصحيف المطبعة حين طبع كتاب ألف ليلة وليلة بمصر غير مرة ، فان تصحيف المطبعة انما جاء على ما هو ظاهر بعد تصحيف اللسان

وجملة القول أن « شخصية نموذجية » واحدة تفعل الأعاجيب فى تزويد صاحبها بالأخبار والأوصاف من حيث لا يحتسب ، فماذا تفعل شخصيتان انتتان ؟ ..

لا جرم يظفر الحسن بن هانىء بنصيب من الأخبار والأوصاف والمعالم الشخصية لم يظفر به شاعر عربى غيره فى المشرق أو المغرب ولا فى الزمن القديم أو الزمن الحديث .. ولا جرم يحتاج بعد ذلك الى تمييز وجهه الصحيح بين شتى الوجوه التى عرضت على الناس باسم أبى نواس

الا أننا نعود فنقول ان هذا النصيب الكبير من الشهرة لم يأت من جانب « الشخصية النموذجية » وحدها ولا من تلاقى الشخصيتين النموذجيتين بالحق وبالباطل حيث التقت شخصية الشاعر وشخصية الخليفة ..

فمن مزايا السمعة السيئة أنها تكف الحسد عن صاحبها من ذوى السمعة الحسنة ..

وقد كان أبو نواس سيئ السمعة ولا مرأى ، وكان من ألداده الشعراء وأضرابه فى سوء السمعة من يحسده وينفس عليه مكائته ولهج الناس بأخباره وأشعاره . أما ذوو الوقار من علماء الأدب واللغة ورواة الشواهد والأمثال فقد هان عندهم فى ميزان الجد والوقار فلم يحسدوه ولم يضمنوا عليه بالشهادة « اللغوية » والتزكية العلمية ، ولم ينكروا عليه البصر باللغة

والسلامة من الخطأ ، وأجمعوا ، أو كادوا يجمعون ، على أنه أسبق
المحدثين بعد الجاهليين والمخضرمين في مقام الاستشهاد باللفظ المحرر
والأسلوب الجزل والنسج القويم ، ولو كان له بينهم وقار كوقار أبي
الطيب أو أبي العلاء — لما خلصت له هذه الشهادة بغير بخس وانتقاص :
فقد تكفلت لهم ببخسه وانتقاصه سمعة سيئة لا تتقاضاهم من عندهم مزيدا
عليها ، وربح أبو نواس من هذه « المزية » منزلة الأستاذين المتفهمين في
اللغة والأدب ، فأخذ من أهل الوقار كما أخذ من أهل المجون ، ونجا من
الاهمال حيث استحق الاهمال بميزان الخلق والدين



ولا يزال بعد كل هذا مدد آخر من امداد الشهرة النواسية غير
الشخصية النموذجية وغير شهادة العلماء الاجلاء والرواة الثقات ..
ذلك المدد الآخر هو الفاكهة المحرمة ، أو الفاكهة المحببة ، على العهد
بين كثير من الناس أن يحبوا كل ممنوع ويلهجوا بكل محظور

فقد كانت الفاكهة المحرمة بضاعة أبي نواس سواء حرمتها شريعة
الأخلاق أو حرمتها شريعة الأديان ، وكانت الزندقة والشذوذ بعض ما يبيع
في سوق الفسوق .. وشأن الفاكهة المحرمة أن يسأل عنها سرا من لا يسأل
عنها علانية ، وأن يقاربها من يألفها ويتجسس عليها من يجهلها وينكرها ،
وأنها من بضائع السوق السوداء كما نقول في العصر الأخير ، فهي من
بضائع المساومة والمغالاة

وفي عصرنا هذا نظير لأبي نواس في الآداب الغربية سيأتي الكلام على
المشابهة بينه وبين أبي نواس في بعض الفصول التالية ، لأنها مشابهة
بمقاييس الأدب والخلق والمزاج والدراسات النفسية ، وأهم من ذلك
فيما نحن بصددده أنها مشابهة في أسباب الشهرة بالفاكهة المحرمة وما يصح
أن يسمى بالزندقة الاجتماعية

فالشاعر الايرلندي الحديث « أوسكار وايلد » أشبه « الشخصيات
النموذجية » في الأدب الغربي بأبي نواس ، ومهما يكن من قيمة أوسكار

وايلد الفنية فشهرته أكبر من قيمته بكثير ، ولم يعرف في القرن التاسع عشر أديب استهجن سيرته كما استهجن سيرة « أوسكار وايلد » ولا أديب شاعت كتبه من أجل ذلك كما شاعت كتب هذا الاديب المحروم المجدود ، وقد ترجم الى كل لغة أوربية وكتب عنه النقاد في كل بلد وتضاعفت الكتابة عنه بعد شيوع التحليل النفسى والمباحث العلمية في مسائل الجنس والأخلاق ، وانما أصابه هذا النصيب في سوق الفاكهة المحرمة التى اتجر فيها من قبل أبو نواس

وكل سبب من أسباب هذه الشهرة هو في الواقع غطاء على حقيقة أبى نواس فوق غطاء ، فهم تخفيه ولا تبديه ، ومن عمل الدراسة النفسية والدراسة التاريخية ان تبرز تلك الحقيقة من وراء تلك الأغطية ، وهذا ما سنبذؤه في الفصل التالى بالكلام على سريره النفسية : وهى السريرة النرجسية ..

أبو نواس الاباحى

النفسية

كان أبو نواس اذن « شخصية نموذجية » ولكنها ليست هى الشخصية التى شاع بها ذكره بين الأميين وأشباه الأميين ، وبين طائفة من خاصة المظلمين على الأدب الفصيح ، وهى الشخصية التى تقوم على الحيلة والجواب السريع والقدرة على الخلاص القريب من المآزق والمحرجات

فما هى اذن حقيقة الشخصية النواسية التى أشاعت ذكره فى أيام حياته وقبل أن تتحول بها الشهرة من دلالة الى دلالة ؟

أيسر ما يقال فى كلمة واحدة أنه « اباحى » وقد كان حقا اباحيا غالبا فى الاباحة ، اذا كان المقصود بالاباحة انه كان يستحل المحرمات ويخالف الدين والعرف والطبيعة

ولكن الاباحى قد يخفى رذائله وموبقاته ، وقد يدارى الناس ويتسم بينهم بسمة الصلاح والتقوى ، ولعل الأكثرين من الاباحيين فى عصر أبى نواس خاصة كانوا على هذه السنة ، لأنه كان باتفاق واصفيه عصر شكوك واختلاط ونفاق ..

وأيسر ما يقال بعد ذلك أنه « اباحى متهتك » يظهر أمره ولا ينكلف لاختفائه ..

وذلك كذلك وصف صحيح . فمن قال عن أبى نواس أنه « اباحى متهتك » فقد وصفه بما كان عليه . لأنه كان يقارف المنكرات ويعلمها ولا يحفل بمداراتها ، وهذا يكفى للصدق فى وصفه على حقيقته ، ولكنه لا يغنى شيئا اذا كان المقام مقام دراسة نفسية . اذ المرء قد يستبيح الرذائل

ويتهتك في البطالة ويتمادى في تهتكه غاية التماذى لعلتين متناقضتين
ترجع كل منهما الى خلال نفسية بعيدة من خلال الأخرى في بواطنها
وظواهرها ..

فقد يتهتك المرء لأنه هين على نفسه يعلم أنه هين على الناس ، مسلم
بحقارته ، شاعر بقلة الجدوى من التستر والمداراة . وأنه يهبط من المهانة
الى حضيضها ، فلا ينفعه أن يحتجب ولا يضره أن يتكشف ويتبدل ،
ومثله في هذا مثل الوضع الساقط الذى لا يبالي أن يخرج للناس في
مباذله اذ ليس له زى غير المباذل ، ولسان حاله كلما أحاطت به نظرات
الاحتقار قول القائل « أنا الغريق فما خوفي من البلل » .. بل لعل
النظرات لا تحفل به وتنخطاه لهوان شأنه فلا تقف عنده محتقرة أو
غير محتقرة ..

هذه حالة من حالات التهتك أو المجون ، وهو كلمة واحدة في اللغة
العربية تعبر عن الاباحة المتهتكة

أما الحالة الأخرى فهي نقيض هذه الحالة في باطنها وظاهرها ، لأن
صاحبها يتحدى بها الناس عامداً أن يسخر منهم ويكشف رياءهم ، وقد
يهون عليه شأن الرياء والصراحة ، فلا يعلن رذائله كراهة للرياء وحبا
للصراحة . بل يعلنها لأنه يريد أن « يقرر شخصيته » ويشعر الناس
بوجوده ويستخف بما يسترونه ويعلنونه ، فلا هو مكترث لهم متسترين
ولا هو مكترث لهم معلنين

حالتان نقيضتان : حالة من ينسى « شخصيته » ولا يراها أهلا للذكر
مشهورا أو غير مشهور ، وحالة من يقرر « شخصيته » ويتعمد الجهر
بالمخالفة لأن الجهر هو سبيله الى هذا التقرير
فأية الحالتين هي حالة أبى نواس ؟

ليست هي الحالة الأولى على التحقيق ، لأن ماروى عنه وماروى من
كلامه يعربان عن رغبة في التهتك والمجاهرة به ولا يقفان عند حد الجرأة
وقلة التكلف للمداراة

ولا تستقصي هنا كلامه في هذه الأغراض ، فإن لهذا الاستقصاء مواضعه عند نقده وتحليله . ولكننا نجتزئ بأبيات قليلة في جملة أغراضه تشير بغير عناء الى هذا المعنى

فهو الذى يقول فى الجهر بمعاقرة الخمر بيته المشهور :

ألا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر

ولا تسقنى سرا اذا أمكن الجهر

وهو الذى يقول فى العشق :

الحمد لله أنى على حسدائة سنى

فقت المحبين طرا ببعض ما شاع عنى

وهو الذى يقول فى مقارفة اللذات عامة :

أطيب اللذات ماكا ن جهارا بافتضاح

وهو الذى سمي السمعة السيئة جاها يحتفظ به ولا يفرط فيه حين نصح

له أبو العتاهية بالتوبة فقال ساخرا منه :

أترانى يا عتاهى تاركا تلك الملاهى

أترانى مفسدا بالنسك بين المررد جاهى

ومهما يكن من تبذله فلم تكن مسألة التبذل عنده علما بهوائه ورضاء

بهذا الهوان ويأسا من دفعه بالصيانة والمداواة . اذ كان معروفا عنه أنه كان

يتعمد أن يلقي ذوى الوجاهة والرئاسة بالتيه والكبرياء ، وكان يذكر ذلك

فى شعره فيقول فى غير موضع :

لقد زادنى تيها على الناس اتنى

أرانى أغناهم وان كنت ذا فقر

وانما كانت مسألة التبذل عنده مسألة ظهور متعمد واستخفافا برأى

الناس لأنه يريد أن يلقي فى روعهم أنهم أهون لديه من أن يستتر لهم وأن

ينزل عن لذة من لذاته لمراضاتهم ، وأنهم من هوائهم عليه يتحداهم ويطلب

مذمتهم ويؤثرها على ثنائهم

والواقع أن الاغظة والظهور هما بيت القصيد ، وأن صاحب هذا المزاج

قد يهمه أن يفيظ جمهرة الناس بالمخالفة وإن كانت مخالفة إلى التقوى والصالح ، لأن « الظهور » وإثارة الشعور هما الهوى الغالب عليه

ولو كانت الاباحية النواسية مقصورة على ما اشتهر به أبو نواس من ادمان السكر وإيثار الذكران على الأناث لما فسرته ولا فسرت شيئا منها هذه الظاهرة النفسية الواضحة : ظاهرة التحدى بالاباحية المتهتكة . فإن صاحب الاباحية المقصورة على ادمان السكر وإيثار الذكران على الاناث قد يخجل منها ويستترها ويجهده اجتهدا للخلاص منها ، وقد ينتهي به الأمر إلى التهلك الذي وصفناه في الحالة الأولى وهي حالة المهانة والاستكافة إليها ..

وانما تفسر آفات أبي نواس جميعا ظاهرة نفسية أخرى هي « النرجسية » التي جعلناها عنوانا لهذا الفصل ، وفيها تفسير لأفته الكبرى وتفسير للآفات الصغرى التي تتفرع على جوانبها

هذه « النرجسية » شذوذ دقيق يؤدي إلى ضروب شتى من الشذوذ في غرائز الجنس وبواعث الأخلاق ، ويلتبس الأمر من أجل هذا بين النرجسية وتلك الضروب المختلفة من الشذوذات الجنسية ، وهي مخالفة لها في دخليتها ، مناقضة لبعضها في ميولها ونزعاتها ، فقد تميل بصاحبها إلى العلاقة الطبيعية بين الذكر والأنثى أو تميل به إلى علاقة شاذة بين شخصين من جنس واحد ، كما كان يحدث أحيانا من أبي نواس في غزله بالذكر تارة وغزله بالموث تارة أخرى ، وفي الجمع أحيانا بين ما يزعمه عشقا لأكثر من فتاة واحدة وما يزعمه عشقا لأكثر من فتى واحد ، ولا أصل للعشقين في نهاية المطاف غير النرجسية في قرارها العميق

ما هي النرجسية

وقبل أن نشرح هذه النرجسية كما يفهمها المحللون النفسيون نذكر تشاة اللفظ والاصطلاح ، لأنها ذات صلة قوية بالمعاني التي أوحى إلى

المحللين النفسيين أن يطلقوا الكلمة على مدلولها بين الآفات الجنسية على الخصوص ..

كان اليونانيون الأقدمون يطلقون اسم نرجس على فتى من فتيان الأساطير بارع الحسن ساحر الشمائل ، يفتن من يراه ويشقى بجماله وتيهه قلوب المذارى الخفريات فلا يلتفت اليهن ولا يستجيب لضراعتهن ، ولم يزل كذلك حتى ضجت السماء بدعاء عاشقاته وصلواتهن الى الأرباب أن يصرفوه عن منه أو يصرفوه عنهن ، واستجابت « نمرسي » ربة القصاص والجزاء الى هذا الدعاء فقضت عليه أن يهيم بحب نفسه ويلقى منها الشقاء الذى تلقاه منه عاشقاته . قال رواة الأساطير : « فما هو الا أن ذهب يشرب من ينبوع صاف حتى لمح بصورته في مائه ، فوقف عندها يعجب من جمالها وأذهلته الفتنة عن شأنه فلم يبرح مكانه مطرقا الى الماء ليتلمس تلك الصورة ويرتوى من النظر اليها ، فلا يزيد النظر الا لهفة وشوقا ولا تزيد اللهفة الا هزالا وذبولاً حتى فنى . وذهبت عرائس الماء تطلب رفاته فلم تجد في مكانه غير نرجسة مطرقة ترنو الى الماء ولا ترفع بصرها الى السماء ، فأنرجس أبداً مطرق مفتوح العين لا يشبع من النظر الى خياله على حواف الجداول والعدران »

وتروى الأسطورة على رواية أخرى ، فيقول الرواة أنه لما لمح طلعتة في الماء حسب أنها عروس الينبوع فألقى بنفسه فيه يحاول أن يمسكها فغرق ولم يعثر الباحثون عنه على جثمانه ، ولكنهم وجدوا في الينبوع نرجسة على مثاله ففرسوها على حافته ، وكانت أبا بلزهر الذى يعرف باسمه ويتطبع في عشقه لصورته بطباع ابيه

ومن غلوهم في عشق « نرجس » لنفسه يزعمون أن حملة الأرواح في نهر الموت الذى يفصل بين الدنيا والآخرة عجبوا له حين رأوه مطرقاً الى النهر ولم يزل منهم المعجب حتى نظروا حيث ينظر وعلموا أنه برح الدنيا ولم يبرح مفتونا بخياله كما كان وهو بقيد الحياة

وللقصة علاقة بقصة أخرى عن عروس من عرائس الأساطير تسمى

«الصدى» Echo وترتبط قصتها بقصة نرجس لأنها كانت تهواه
 قالوا : ان هيرا زوجة زيوس أبى الآلهة والأرباب خرجت كعادتها
 تتجسس على خليات زوجها وتتعقب الحور اللأى يسعدن بقربه من
 ورائها ، فلما كانت فى بعض الطريق لقيتها عروس الصدى فشغلها عن
 سعيها بشرتها وفضولها وحلاوة أحاديثها التى تحكى بها مناجاة ضميرها ،
 فلما غابت عنها نظرت حولها فاذا بالحور والعرائس الالهات قد تغفلنها وهى
 مشغولة مع عروس الصدى ، فغضبت على تلك العروس الثائرة وقضت
 عليها أن تسمى بإبتداء الكلام فلا تقدر على النطق الا ترديدا لما يلقى اليها
 ثم هامت عروس الصدى بنرجس وهو على دأبه من الهيام بنفسه ،
 وأبلاها الحب لأنها عجزت عن مفاتحته بفرامها ، وكادت تيأس لولا أنها
 ظفرت به يوما ينادى أحد رفاقه ، ويصيح به من بعيد : الا أحد فى هذا
 المكان .. ١٩

فسنحت لها الفرصة وأجابته قائلة فى شوق وحنين : أحد فى هذا
 المكان ..

قال : هلم

قالت : هلم ..

فأعرض محنقا وهو يقول : « لا . لا . لست أعنى هذا . سأموت ولا
 يكون لك سلطان على »

فلما مضى فى سبيله غير ملتفت اليها عافت نفسها ولاذت بالكهوف
 والمغاور فلا يحسها السامع بعد ذلك الا فى كهف أو مغارة ، ومن هنا
 كانت علاقة الصدى بمن يحب نفسه ويروقه أن يستمع الى كلامه معادا
 اليه ..

ويرى الكاتب بلوتارك أن كلمة نرجس مأخوذة من كلمة نارس أو نارك
 الاغريقية بمعنى الخدر والغيوبة ، ومنها كلمة ناركوسس Narcosis التى
 تطلق على النبات المخدر المذهب للحس . ولم يكن النرجس من هذا النبات

ولكنهم أطلقوا عليه اسمه كأنه قد تعاطى المخدر وبدأ لمن يراه كالساهر المسبوت ..

وكل هذه الأقاويل عن النرجس والصدى والخدر والسبات لاحقة بما تنطوي عليه آفة « النرجسية » من الغرائز أو من الميول والأحاسيس ، فهي آفة متصلة بالغيوبة والنشوة والهيام وحب المصاب بها للملامحه وكلامه ولهذا وقع عليها اختيار المحللين النفسيين ، فلم يجدوا اصطلاحاً أوفى منها لأعراض تلك الظاهرة النفسية ، مع عراقة الاصطلاح في اللغة اليونانية التي يختارونها لابتداع الأسماء الجديدة في العلوم كما فعلوا بأسماء السيارات الفلكية أو العناصر والعقاقير التي تكشف حديثاً ، وأوقفها عندهم ما اشتهر في الأساطير

وأول من أدخل هذا المصطلح في الطب النفسى الدكتور هافلوك اليس Havelock Ellis رائد المباحث الجنسية المشهور ثم توسع الأطباء النفسيون في دراسة هذه الآفة وتتبعوا أعراضها ولوازمها واستقصوا ماهو من لوازمها الأولية وماهو من لوازمها الثانوية أو التبعية ، فأصبحت بعد هذه الدراسات قسماً قائماً بنفسه من شذوذات الغريزة الجنسية واشتملت على آفات متعددة تنطوي تحت عنوان واحد هو عنوان النرجسية

الاشتهاء الذاتى والتوثين الذاتى

وتعني هنا شعابها التي تتصل بدراسة أبى فواس وموضوعات عشقه وغزله ، وأهمها شعبتان : تسمى احدهما الاشتهاء الذاتى Auto-erotism وتسمى الأخرى التوثين الذاتى Auto-Fetishism وبينهما فرق دقيق ولكنه غير حاسم لأن أعراض كل منهما قد تنساب الى الأخرى في مسارب النفس الخفية ودخائل الغريزة المكنونة . وما أكثر المسارب والدخائل في هذه الشئون ..

فالاشتهاء الذاتى يغلب على الحالات الجسدية التي تقترن باختلال وظائف الجنس في صاحبها ، ويبلغ من اختلال هذه الوظائف أن المصاب به

يمنى اذا اطلال النظر الى بدنه عاريا في المرأة وما اليها ، وانه يشتهي بدنه كأنه بدن انسان غريب عنه ، ولكنها شهوة يبالغ فيها المريض ، لأن الاعجاب بالابدان الغريبة لا يستغرق شعور المرء كما يستغرق الاشتهاء الذاتى صاحبه ويفرجه على الدوام بتأمل جسده ومعاودة النظر اليه ، ويحدث أحيانا ألا يكون النظر استحسانا محضاً ، بل أسفا لبعض النقص واجتهادا في تحسينه والمغالطة فيه

والتوثين الذاتى يغلب على الحالات العاطفية والفكرية ، فيتخذ المصاب به من نفسه وثنا يعبده ويعزه ويدلله ، ويشوب هذا التوثين حب كعب المرء لمعشوقه ، فهو لا يخلو من اختلال وظائف الجسد ولكنه لا يبلغ بها مبلغ الحالة الأولى

وتلازم الاشتهاء الذاتى والتوثين الذاتى معا لوازم متفاوتة في درجة الالتصاق بالآفة وتوابعها

فمن أبرزها وأقواها لازمة التلبيس او التشخيص identification ومنها لازمة العرض Exhibitionism ولازمة الارتداد Regression

لازمة التلبيس والتشخيص

فلازمة التلبيس والتشخيص لاغنى عنها في هذا الضرب من الشذوذ الجنسى وهو عشق الانسان لذاته من الناحية الشهوانية ، فالشاذ في حب جنسه أو حب الجنس الآخر يجد طلبته ويقضى مأربه . أما الذى يشتهي بدنه فليس فى وسعه أن يقضى مأربه منه بغير الاحتيسال لذلك بالتلبيس والتشخيص ، فهو يلبس شخصيته شخصا آخر يتوهم أنه هو ذاته أو يحل محل ذاته ، وكما يفعل جالد عميرة حين يضع أمامه صورة أو يتخيل في ذهنه عشيقة يتوهم أنه يواقعها يحدث للمصاب بالاشتهاء الذاتى أنه يختار شخصا آخر يحله محل نفسه في أوصافه البدنية أو الخيالية ، ويتعلق به وهو فى الواقع متعلق بذاته

ولازمة العرض تشمل الاظهار بجميع درجاته ، فاذا أمعن في الجسدية

والشواغل الحسية شوهده المصاب به وهو يكشف عورته ويعرض أعضائه ويتعري من ثيابه أو يلبس الثياب التي تشبه العرى ولا تستر ماوراءها ولكن الأكثر الأعم في لازمة العرض أنها لاتمنع هذا الامعان الا في حالة الجنون وما يقاربه ، وأنها تتحول الى الاظهار ولقت الانظار على أساليب لا تحصى ، وقد ينتهى بها التناقض أحيانا الى اعلان التقوى والظهور بين الناس بآثار التعذيب والتمرغ وسمات العبادة واذلال النفس بتشويه الجسد وتلويشه ..

ومن لم ينته التناقض به هذا المنتهى يشاهد عارضا نفسه بالأزياء الغريبة والألوان الصارخة ، ماضيا في كل عمل من أعماله العامة على سنة الاشتهار بالمخالفة ، على حد القول الشائع : « خالف تعرف ! »

أما الارتداد فهو يعترى الشواذ على أطوار متنوعة ، وانما يعترى النرجسين من تلبس ذواتهم بغيرهم ، أو خلع ذواتهم على شخص آخر يلتمسون المشابهة بينهم وبينه ، ولكنهم لا يظفرون في كل حين بشخص تام الشبه بهم في كل صفة وصفة . فاذا اتفق لأحدهم أنه رأى شخصا يشبهه في الملامح والقوام ويخالفه في القوة فالذى يحدث في هذه الحالة أنه ينتحل صفة القوة لنفسه كأنه ارتدها اليه من الشخص الذى تلبس بملامح ذاته ، وتتفاوت درجات الارتداد بتفاوت المصاب في درجات المرض فمن المصابين من ينتحل صفة ليست له ولكنها قابلة للادعاء كالقوة والمهارة والمهابة ، ومنهم من ينتحل صفة ليست له ولكنها لا تقبل الادعاء كالطول واللون الأبيض أو الأحمر ، فيكون قصيرا ويروض نفسه على اعتقاد الطول أو أسمر ويروض نفسه على ادعاء البياض والشقرة ، بل قد يدعى الوصفين المتناقضين اذا تناول بالتلبس والتشخيص مثالين مختلفين وهذه الحالة عرضة للاعاجيب في أوهامها وأخيلتها ، فقد تفضى بصاحبها الى مجارة الطبيعة والشذوذ في وقت واحد فيخلع ذاته على امرأة مشتتة ، فهو من هنا طبيعى في حبه للجنس الآخر ، ثم يتشبه بالنساء لأنه أعاد اليه بالارتداد خصلة من خصال تلك المرأة لاتوجد في الرجال ، فهو من

هنا شاذ عن السواء يحس احساس المرأة نحو الرجل الذي تعشقه
وتتصاه ..

هذه اللوازم تنطبق على أبى نواس في خلائقه الأولية وخلائقه التبعية
وتفسر جميع أحواله حيث لا يفسرها ضرب آخر من ضروب الشذوذ في
المسائل الجنسية ..

فالشذوذ الذى يميل بصاحبه الى عشق أبناء جنسه والعزوف عن
الجنس الآخر آفة لا تنطبق على أبى نواس ، لأنه يغازل الجوارى كما
يغازل الغلمان ، وكلامه كثير في استحسان الفتاة لأنها كالغلام واستحسان
الغلام لأنه كالفتاة
فهو يقول في جارية :

غلام والا فالغلام شبيها
وريحان دنيا لذة للمعاق
ويقول في غلام :

من كف ذى غنج حلو شمائله
كأنه عند رأى العين عذراء
ويقول في أخت وأخ :

يديرهما دعجاء^(١) رود وادعج
أخ وأخته في القوم واسمهما اسم
يقال له معن فأما نكسته
لتدعو أخته يوما فمكوسه نعم

والشذوذ بمعنى حب الانسان لجنسه Homosexuality لا يفسر هذه
الحالة بل يزيدا ابهاما عند البحث عن أسباب النزعة ومواضع الزيف فيها ،
وانما تفسرها الترجسية وما طبع عليه المصابون بها من اختلاف الهوى
حسب اختلاف التلييس والتشخيص . فاذا اشتهى ذاته ولبسها بواحدة
من الجنس الآخر ظهر أنه مستقيم على سواء الطبيعة ، وهو في الحقيقة

(١) دعجاء : أي ذات دعج وهو شدة سواد العين مع سعتها .

شاذ على الحالتين ، لأن العلة هي الاشتناء الدائى ولازمة التليس والتشخيص ..

وقد كان هذا التليس يبدو فى غزل أبى نواس صراحا مكشوقا حين يختار لهواه غلاما الثغ كأبى نواس ، وان كانت لثغة هذا بالراء ولثغة ذاك بالسین ، فيقول :

وا بأبى الشخ لاججته فقال فى غنج واخناث
لما رأى منى خلافى له : كم لقي الناث من الناث
نازعتة صهباء كرخية قد حلبت من كرم حراث
أو يختار غلاما لا يحسن النطق بالراء تكسيرا لها كما يقول :
يكسر الراء وتكسيرا يدعو مع المقم الى الحنف
أو يختار « ظبيا » يعجبه منه ما يصنعه فوه بالراء :
ياذوب قلبى من ظبى كلفت به

ما تصنع الراء فى فيه اذا نطقا
وتمجبه البجة التى كانت احدى خواصه الصوتية ، فلا ينساها وهو
يقول فى وصف غلام :

وبه غنة الصبا تعتليها بحجة الاحتلام للتشريف
وكان هذا التليس يبدو كذلك مكشوقا على نحو آخر حين يقول فى
جارية تشبه بالكتاب :

مؤزرة مؤثثة بها ألم ، وبى ألم
تجرر ذيل مؤزرها وفارس أذنها قلم

ويذكر مثال الحسن فى الجنسين اذا تكلم عن حسناء كما يقول فيمن
عرضوها عليه ليتزوجها :

ولو أنها فى الحسن كانت كيوسف

وبلقيس أو كانت كخط مثال

وقالت : تزوجنى على مهر درهم

لقلت اغربى عنى فمهرك غال

ومما أشار إليه في مجونه ، ولا حاجة الى ايراده ، انه كان يخاطب معشوقيه من الغلمان فيقول لهم انه كان معشوقا مثلهم ويحكى لهم كيف يتشبهون به مع عاشقيه ، وفي نسييه بالنساء تدليل لنفسه يومئ الى أنوثة كامنة في طبعه كما يقول لاحداهن :

لا تفجعي أمى بواحدنا لن تخلفي مثلى على أمى
وفيه استغاثة تحكى استغاثة المرأة بأخواتها :

تجمعوا علموني يا أخوتي كيف آتى
يا ويلتسا أى شئ بين الحشا واللهاث (١)

فهو في طبيعة النرجسية سهل عليه أن يلبس ذاته لكلا الجنسين ، وأن يكون شاذا في حالة ومساوقا للفطرة في حالة ، وما كان على الفطرة في الحالتين ..

ومما هو خليق بأن يتأني عنده الدارسون للنرجسية ولوازمها أن « جنانا » كانت أحب معشوقاته اليه وأنها كما جاء في كتاب ابن منظور عن أخبار أبى نواس كانت تحب النساء وتميل اليهن ، فربما كان هذا الكلف الخاص بهذه الفتاة لأن لازمة التشخيص والتلبيس تتحقق بها على نحو لا يتحقق غيرها ، اذ كانت لها السمات النفسية والبدنية التى تترأى فيها ميول الجنسين ..

وخليق بالدارسين كذلك أن يلتفتوا الى سر هيامه بالجارية « حسن » واستيحائه من اسمها معنى التوحيد بينه وبينها كما قال متغزلا بها متشفعا لديها بهذه الحرمة :

ان لى حرمة فلو رعيت لى لا جوار ولا أقول قرابة
غير أنى سمى وجهك لم أحر مه فى اللفظ والهجا والكتابة
فاذا ما دعيت غير مكنى لم أقصر حفظا له فى الاجابة
فاكتبى وانظرى الى شبه الا حرف ثم اجمعيهما فى الحسابه

فليس أقرب فى مسارب الشعور الجنى من الانتقال بتداعى الفواطر بين هذا التشبيه والتقريب وبين عادة التشخيص والتلبيس

(١) اللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق من أعلى الفم .

فهو في طبيعة النرجسية سهل عليه كما قدمنا أن يلبس ذاته لـكـلا
الجنسين وأن يكون شاذاً في حالة ومساوقاً للفطرة في حالة ، وما كان على
الفطرة في الحالتين

لازمة العرض

وتنطبق عليه لازمة العرض كما تنطبق عليه لازمة التلبس والتشخيص
ولعل لازمة العرض أظهر فيه ، لأنها من شأنها أن تتلمس وسائل الاظهار
فلم ينظم شعرا في الخمريات أو الغزل أو المجون الا تبين منه أن الجهر
بالمحرمات أدنى الى هواء من المتعة بالمحرمات
وان قالوا حرام . قل حرام ولكن اللذابة في الحرام
وتكبر المتعة في حسه وفي وصفه بمقدار المخالفة لا بمقدار المتعة
والتذاذها فلا يتساوى شراء الخمر والفسوق بمال حلال وشراؤهما بمال
حرام ..

واركب الآثام حتى يبعث الله الأثاما
فلکم نلنا بدینا ر قمراء غلاما
وشربنا یومنا ذا ک یساقیه مداما
لانصرف فی حرام أبدا الا حسراما

أو كما قال ، فيما نسب اليه ، ان الخمر لا تشرب الا بشمن خنزير
مسروق من زانية ... وكأنما نعت نفسه وهو ينعى محبوبه الذي يقول
فيه :

کطالب مثلاً قیل ل خالف الناس تذکر
ان کبر الناس غنی وان تغنوا یکبر

ومن اللغو أن يبحث الباحث جدا عن مذهب أبي نواس في الزندقة ،
فليس له في الزندقة مذهب غير « العرض والاظهار » ... وقد روى عنه
أنه انصرف من بعض المواخير سكران فمر بمسجد قد حضرت فيه الصلاة
فدخل فقام في الصف الأول ، فقرأ الامام . « قل يا أيها الكافرون » قال

أبو نواس : لبيك ! فلما قضيت الصلاة لبيوه^(١) وساقوه للحساب ... فأى مذهب من مذاهب الزندقة يسول لصاحبه هذا المجون . انما هي آفة العبث بالمخالفة ولا شيء سواها يغريه بهذا السخف الذميم ومن اللغو كذلك أن يقال كما قال بعض المستشرقين أنه كان يكره الإشارة الى الطلول في مطالع القصائد ولما منه بالتجديد ونفورا من القديم ..

فما كان ينمى على الشعراء بكاء الطلول الا لينمى من وراء ذلك معيشة البادية على أهلها أجمعين ، وبهذه النزعة كان يكثر من التعريض بالعرب العدنانيين والفخر بالعرب القحطانيين ولم يكن له نسب ثابت في هؤلاء ولا هؤلاء، وقد كان من شعراء عصره من لهم نسب ثابت في اليمن أو نسب ثابت في الحجاز فلم يجعلوا هذا النسب هجيرا^(٢)هم كما جعله أبو نواس وانما أغراء بالخيوط في هذا المعرض الشائك انه كان مسمر النار في عصره ، وكانت النفوس تستثار به حيث لا تستثار بغيره . فقد طاح النزاع بين القبائل بالدولة الاموية وطاح هذا النزاع بالخليفة الأمين في دولة العباسيين ، وخيفت العصبية يومئذ أشد ما تخاف في حقبة من الحقب ، ومن هنا كان أمر الخلفاء له بذكر الطلول كما قال :

دعاني الى وصف الطلول مسلط لقد ضقت ذرعا أن أجوز له أمرا ولم يكن هذا الأمر تأييدا منهم لمذهب من مذاهب الأدب على سواه ، ولكنه كان اتقاء للشغب وابعادا لباب الخصومات والعصبيات ، ولو لم تكن المسألة مسألة عرض واظهار عند صاحبنا لما عناه هنا رأى الأقدمين ولا رأى المحدثين ، فقد كان ينحو في الطرد والغزل والمدح والهجاء منحى الشعر القديم ويلهج بمحاكاته على نمط لم يؤثر عن أحد من نظرائه ومعاصريه ..

ومن تغفل هذه اللازمة في خليقته — لازمة العرض والاظهار والتحدى بالمخالفة — انه جعل الصلاح تهديدا لابليس في قصيدته التي يقول منها :
لما جفاني الحبيب وامتنعت عنى الرسائل منه والخبر

(١) لبيوه : أخذوا بتلابيبه وهي ما عند الصدر من الثوب . (٢) هجيرا : هجروا .

واشتد شوقي فكاد يقتلني
دعوت ابليس ثم قلت له
أما ترى كيف قد بليت وقد
إن أنت لم تلق لي المودة في
لا قلت شعرا ولا سمعت غنا
ولا أزال القرآن أدرسه
والزم الصوم والصلاة ولا
فما مضت بعد ذلك ثلاثة
الى آخر القصيدة :

قال رزين الكاتب عن سبب نظم هذه القصيدة : « اجتمعنا يوما
وأبو نواس وعلى بن الخليل في سوق الكرخ ، وكنا نجتمع وتتناشد
الأشعار وتذاكر الأخبار وتحدث بها ، فقال أبو نواس : أدبر من كان في
نفسى وكان أسرع الخلق الى طاعتي ، فما أدري ما أحتال له ؟ فقال على
ابن الخليل يمازجه : يا أبا على ! سل شيخك وأستاذك يعطفه عليك .
فقال أبو نواس : من تعنى ؟ فقال : من أنت في طاعته ليلك ونهارك ، يعنى
ابليس ! فإن لم يقض لك هذه الحاجة فما ينبغى لك أن تسأله مسألة ولا أن
تقر عينه بمعصيه فقال هو أسد لرايه من أن يخل بى أو يخذلنى .. وانقضى
مجلسنا ذلك . فلما كان بعد أيام اجتمعنا في ذلك الموضع وأخذنا في
أحاديثنا ، فضحك أبو نواس .. فقلنا له : ما أضحكك ؟ قال : ذكرت قول
على بن الخليل يومئذ : سل شيخك يعطفه عنك .. حينئذ قد سأله
يا أبا الحسن فقضى الحاجة ، وما مضت والله ثلاثة حتى أتانى من غير أن
أبعث اليه ومن غير أن أستزيره ، فعاتبنى واسترضانى ، وكان الغضب منى
والتجنى . وأحسب الشيخ - يعنى ابليس - كان يسمع علينا في وقت
كلامنا » ..

هذه هى القصة كما رواها رزين الكاتب لا يعيننا صحت روايته أو لم
تصح ، فإن القصيدة لأبى نواس لا تروى لأحد غيره ، ولولا دخيلة طبع

مطوية على آفتها ولو ازمها لقد كان اقتراح على بن الخليل خليقا أن يوحى الى أبي نواس أن يتوجه بالطلب الى ابليس على غير ذلك الأسلوب ، ولكنه جرى على دأبه فصنع مع ابليس ما يصنعه مع الناس ، فهو يتحدى الناس بالمعصية والفسوق ويتحدى ابليس بالصلاح والعفاف ، وهى اذن خلة واحدة ذات صبغتين !

وتتمثل هذه الشهوة « النرجسية » شهوة المخالفة والمغايرة في قصيدة أخرى صور فيها ابليس بصورة المتوسل اليه بغواياته ليختار منها ما يحلو له وهو يأبأها غواية بعد غواية ولا يزيد على أن يقول له « لا » من قبيل المكابدة والمعادنة لا من قبيل الزهد والعفاف قال :

نمت الى الصبح وابليس لى	فى كل ما يؤمنى خصم
رأيت فى الجو مستعليا	ثم هوى يتبعه نجم
أراد للسمع استراقا فما	عشم أن أهبطه الرجم
فقال لى لما هوى مرجبا	بتائب توبته وهم
هل لك فى عذراء مكورة	يزينها صدر لها فخم
ووارد جثل (١) على متنها	أسود يحكى لونه الكرم
فقلت : لا . قال فتى أمرد	يرتج منه كفيل فعشم
كأنه عذراء فى خدرها	ليس فى لبته نظم
فقلت : لا . قال فتى مسمع	يحسن منه النقر والنغم
فقلت : لا . قال فتى كل ما	شابه ما قلت لك الحزم
ما أنا بالآيس من عودة	منك على رغمك ، يا فدم
لست أبا مرة ان لم تعد	فغيرذا من فعلك الغشم

ولا يخطئ القارئ فى هذه الابليسيات التى تروى لأبى نواس أو تروى عنه ، ما تحتويه من خبيثة التعلل بالوجاهة والامتياز والظهور بين الأقران ، فمما رواه والبة بن الحباب أستاذ أبى نواس أنه « كان نائما ، وأبو نواس

غلامه نائم اذ اتاه آت في منامه فقال : أتدرى من هذا النائم الى جانبك ؟ قال : لا .. قال هذا أشعر منك وأشعر من الجن والانس أما والله لأقتنن بشعره الثقلين ولأغررن به أهل المشرق والمغرب . قال : فعلت أنه ابليس فقلت له : فما عندك ؟ قال : عصيت ربى في سجدة فأهلكنى ، ولو أمرنى أن أسجد لهذا ألف سجدة لسجدت »

ومن رضاء أبى نواس أن يسجد ابليس له ولا يسجد لآدم ، أما والبة فحسبه أن يقول غلامى أبو نواس !

وقد كان من منافع ابليس في مجون أبى نواس أنه يكفل له وجاهة التمييز بالخمرة التى هو كفو لها دون عداله ، فهو يخصه بها ويصرف عداله عنها ..

دعوت ابليس ثم قلت له لا تسق هذا الشراب عدالى

وما كل من يشرب الخمر نظيرا لأبى نواس :

فالخمر قد يشربها معشر ليسوا اذا عدوا بأكفائهم

وكثيرا ماتبدو شهوة الوجاهة والظهور في ولع أبى نواس بشرب الخمر كائنا ما كان نوعها . فهي فضلا عما تخيله لشاربها من العظمة والسلطان ليست مما يرتقى الى « كفاءته » كل شارب وطالب ، وأبو نواس حين يشربها أجدر بشربها من أمم وآحاد ، وعلى لسانها يقول :

فاستوحشت وبكت في الدن قائلة

يا أم ويحك ، أخشى النار واللهبا

فقلت لا تحذريه عندنا أبدا

قالت : ولا الشمس ؟ قلت الحر قد ذهب

قالت : فمن خاطبى هذا ؟ فقلت أنا

قالت فبعلى ؟ قلت الماء ان عذبا

قالت : لقاحى . فقلت الثلج أبرده

قالت فبيتى ؟ فما استحسن الخشبا

قلت القناني والاقداح ولدها
 فرعون : قالت لقد هيجت لى طربا
 لا تمككنى من العرييد يشربنى
 ولا اللثيم الذى ان شمنى قطبا
 ولا المجوس فان النار ربهم
 ولا اليهود ولا من يعبد الصلبا
 ولا السفال الذى لا يستقيق ولا
 غر الشباب ولا من يجهل الادبا
 ولا الاراذل الا من يوقرنى
 من السقا ، ولكن أسقنى العربا
 يا قهوة حرمت الا على رجل
 أثرى فاتفق فيها المال والنشبا
 ولم يكن عرضا أنه كان يدعى لها جلالة الشأن على الملوك ، ويعيد هذا
 المعنى كقوله :
 ومدامة تحيا الملوك بها جلت مآثرها عن الوصف
 وكقوله :
 ومدامة سجد الملوك لها باكرتها والديك قد صدجا
 أو قوله :
 ومدامة سجد الملوك لذكرها جلت عن التصريح بالاسماء
 أو كقوله :
 صهباء فضلها الملوك على نظرائها لفضيلة القدم
 وكذلك ترديد ذكر التاج عند ذكر سقاتها كما يقول :
 تتجت من كسرم كسرى قبل ابان التتاج
 وغزال من بنى الأصـ فر معصوب بتاج
 شخصه منى بعيد وهو منى كالمناجى
 أو كما يقول :

لها تاج مرجان واكليس لؤلؤ ترنم كالنشوان بين العواشق
يدور بها ظبي غرير متوج يتاج من الريحان ملك القراطق^(١)
فإن الخمر أداة صالحة للتدليل الذى يكمن فى أعماق « النرجسية »
وحب أبى نواس لها حب للتدليل الذى لا تستغنى عنه طبيعة الافتتان بالذات
أو توثيق الذات ، ومن هذا التدليل هذا الترنم بالتاج والملك والامتياز
بمقام للشرب لا يكافئه كل مقام ، وما كان هذا الشعور خبيثة عميقة فى
نفس الشاعر « النرجسى » وحسب بل كان على طرف لسانه ، وكان أحيانا
يلجئ^(٢) السكر فى سبيل أحلامه ، وهو لا يلتفت الى مغزى ما يقول . حيث
قال :

وأصبحت الحى السكر والسكر محسن ألا رب احسان على ثقیل
كفى حزننا أن الجواد مقتر عليه ، ولا معروف عند بخيل
سبأبى الغنى أما جليس خليفة يقوم سواء أو مخيف سبیل
بكل فتى لا يستطار جناحه اذا نوه الزحفان باسم قتیل
لنحى مال الله من كل فاجر أخى بطنة للطيبات أکول

فها هنا حلم مستقل عن حلم الخمر ولكنه لا ينفك عن لازمة « النرجسى »
المدلل لنفسه ، ويكاد ينسى صاحبه — وهو من الساخرين — انه عرضة
للسخرية التى لا سخرية بعدها حين يتخيله القارىء نديما لخليفة لا يقبل
منادته بغير شرط بل يشترط فيه « السواء » .. ثم يشرئب الى عزة أكبر
من هذه العزة فيزين له الحلم أنه قاطع سبيل مخيف ليجمع الغنائم وينفق
خمسها فى سبيل الله ، ويحرمه على الولاة ذوى البطننة الذين يأكلون
الطيبات .. ولا يغلط فيقول : ويشربون المحرمات .. فمثل هذا الغلط من
أبى نواس غير معقول حتى فى الأحلام !

ونحسب أن الفارق قد اتضح من هذه الأمثال بين أنواع التفكير
والإباحة ، ولا سيما إباحة « الشخصية العاتية » وإباحة « الشخصية
النرجسية » ..

فالعاتى الذى يستبيح المحرمات يبطل التحريم والتحليل ولا يعرفهما

(١) القراطق : جمع قرطق وهو القباء بفتح القاف : ثوب طويل يلبس
فوق القميص ويتمنطق عليه . (٢) يلجئ : لجى الرجل صاحبه : لأمه وسبه
وعابه . والله فلانا قبحه .

كما قال أبو الطيب في وصف الأسد :

في وحدة الرهبان إلا أنه لا يعرف التحريم والتحليلا
ويود لو فرض على الناس حرامه وحلاله شريعة يأخذهم بها وينزلهم
منزلة الشريعة التي درجوا عليها . أما الشخصية النرجسية فلا يلوح من
عملها وقولها أنها تريد ابطال المحرمات بل يلوح من كل أعمالها وأقوالها
أنها على نقيض ذلك تريد أن تستبقى شيئا محرما لتستبيحه وأمرها ملزما
لتنعم بعصيانته ، وشأنها شأن الطفل المدلل الذي يمتطي هواه ويقيس هواه
ودلاله بمقياس التجنى والحران ، والولع بما يمتنع والاعراض عما يبذل
ويسهل مناله ، أو يستباح

والتدليل هنا هو قوام توثين النفس والشعور بهذا التوثين من الآخرين
وغاية الهوى هنا في الطفل المدلل أنه يكلف أهله مالا يوجد ويأبى ماهو
موجود وميسور ..

وتلك هي الاباحية النرجسية التي تقترن بتوثين النفس وتدليلها ، ولا
نموذج لها في الأدب العربي أوفى لموارضها ولوازمها من أبى نواس

لازمة الارتداد

أما « الارتداد » ، وهو اللازمة الثالثة التي ذكرناها من لوازم النرجسية
فهو الذي يعرف أحيانا باسم الصفات الثانوية وليس من طبيعته أن يظهر
قبل المراهقة ، وربما تأخر الى ما بعد المراهقة بسنوات الى أن توجد
النوازع الجنسية التي لا تتأتى الاستجابة لها حين يكتفى النرجسى بتوثين
نفسه ..

ويسمى الارتداد بالصفات الثانوية لأنه لا يبلغ مبلغ التشخيص
والعرض في ملازمة النرجسية ، ولأنه يأتي مرجوعا في شخص واحد ،
ويأتي لهذا على ثلاث درجات :

أولاهـا — توثين النفس ..

وثانيتهما — خلق الشخصية على انسان آخر، ومن المتعذر أن يكون هذا

الانسان نسخة مكررة من الشخصية النرجسية كما تهواها ففيها لا بد شيء من الاختلاف بالتحسين أو بالتقصير

وثالثة الدرجات — أن تعود الشخصية النرجسية فتستعير الملامح المختلفة وتلبس بها وتحسبها من ملامحها وصفاتها ، وبخاصة اذا رأت أنها ناقصة فيها ..

ولا حاجة الى استقصاء شواهد « الارتداد » في شعر أبي نواس ، فكل ما وصف به اكفاء المنادمة والظرف وجعلهم من أقرانه لا يخلو من هذا الارتداد ، وكان قريبا في تداعى الخواطر — أو تداعى الهواجس — أن يرى أنه يشبه « حسنا » اسما ورسمًا اذ كان مفتونا بطول قامتها وهو غير طويل :

طويلة خوط المتن عند قياسها ولي بالطويلات المتون ولوع

ويخطر على البال أن أكثر الصفات المرتدة انما كانت من صفات المخلوع^(١) محمد الأمين ، ومن حبه اياه أنه كان صديق الخمر وان كان ينهأ عنها لينفى عن سمعته قالة السوء

بل قيل — وما هو بالخاطر البعيد — إن شغفه بالأمين انما كان شغف عاشق لا شغف تابع بمتبوع ، فما كان أبو نواس بالذى يبقى على ولائه بعد خلع الخليفة تشيعا لرأى أو تعصبا لمذهب ، وتقول طائفة من الرواة أن أبيات الشاعر الدالية التى يقول منها :

أصبحت صبا ولا أقول بمن من خوف من لا يخاف من أحد
إن أنا فكرت في هوى له أحسست رأسى قد طار عن جسدى

انما نظمها في الأمين ، وانه كان يشرب معه يوما فنشط الأمين للسباحة فلبس ثياب ملاح ولبس غلامه كوثر مثل لباسه ووقعا في البركة ونظر أبو نواس الى بدن الأمين فرأى ما لم ير مثله ، فلما كان من غد جاء الحسين ابن المنذر مسلما عليه . قال الحسين : فسألته عن خبره مع محمد فقال ويلك ! رأيت الفتنة ، وأنشد هذا الشعر .. فقلت له ويحك اتق الله في رأسك ، فانه ان بلغه قتلك

(١) المخلوع : المتهتك .

ولعل أبا نواس لم يحفظ للأمين من ذكراه ما هو أدنى الى طبعه من
معاقرته الخمر ومن مجونه وملاحته

أأرفضها والله لم يرفض اسمها وهذا أمير المؤمنين صديقها

فإذا كانت لازمة « الارتداد النرجسي » بحاجة الى مورد يستعير منه
الشاعر ما ليس عنده من الزينة الشخصية فليس أخرى من الأمين أن يكون
هذا المورد الرفيع ، مع ماتقدم من ولع الشاعر بترديد الزهو بسمات
الملوك وزينة التاج والاكيل

وخلاصة القول في النرجسية أن أبا نواس كان من الشواذ في تكوينه
الجنسي ودوافعه النفسية ، ولكن شذوذه غير الشذوذ الذي اشتهر به
وهو ايثاره الذكران على الاناث ، ولا بد من التفرقة بين الشذوذين لأن
النرجسية تفسر أطوار أبي نواس جميعا والشذوذ الآخر لا يفسرها ،
وهذا عدا ضرورة التفرقة بين الشذوذيين للكشف عن بواطن السريرة
وفهم الأخلاق الخاصة والأخلاق الاجتماعية

فغرام أبي نواس بالجنسين وانحرافه مع بنى جنسه فاعلا ومنفعلا أمر
لا يفسره ايثار الذكران على الاناث Homosexuality ولكن النرجسية
تفسره كل التفسير من جميع نواحيه

والنرجسية تفسر الولع بالمجاهرة الاباحية ولكن الشذوذ الآخر
لا يفسرها ، لأنه قلما يفرى صاحبه بالمجاهرة وكثيرا ما يوحى اليه التخفى
والاستتار ، وإذا تبذل فانما يتبذل لاعتقاده أنه أهون من أن يلفت الأنظار
وأهون من أن يبالى الاهانة ، لا لأنه يعمل على لفت الأنظار والاستهانة
بالملام ..

وقد تكون التفرقة هامة للعلاج النفسي عدا هذا الاعتبار من جانب
النقد والتاريخ . وستكون هامة للعلاج النفسي لا محالة يوم تتكشف
خصائص العدد ومفرداتها وعلاقتها بالأطوار الجنسية والنفسية ، فقد

يصبح تعديل هذه المفردات بالعلاج الجسدى ميسورا. كما يصبح ضروريا لتقويم الأبدان والأفكار ..

لازمة لفراس واسكار وايلد

واعتقادنا فى أمثال هذه الدراسات أن المقارنة أفضل وسائل التمييز فيها ، وأن أفضل المقارنات ما كان بين المتباعدين فى البيئة والزمان ، فإن التشابه بين أبناء البيئة الواحدة والزمن الواحد لا يميز الأضداد ، ولكننا اذا قارنا بين اثنين تفرقهما البيئة والزمان ثم رأينا علامات التشابه بينهما واضحة فهذا هو الدليل القاطع على فعل العلة التى يشتركان فيها

وقد أسلفنا أن الشاعر العصرى أوسكار وايلد كبير الشبه بأبى نواس فى لوازم الترجسية ، وهما مختلفان بعدها فى كل شئ : فى الزمن والموطن واللغة والدين والطبقة الاجتماعية ، ولكنهما على هذا يتماثلان فى كل لازمة من لوازم الترجسية ، ويختلفان فىكون اختلافهما أدل على وحدة المزاج ..

ففى أوسكار وايلد نلقى الملامح الأثوية وخصل الشعر المرسل والصوت الذى تمازجه الرخامة ..

وفيه نلقى حب الظهور ولفت الأنظار وشغل الأذهان ، ولم تكن مصطلحات التحليل النفسى قد شاعت فى أيامه فلم يصفوه بحب العرض Exhibitionism كما كانوا يصفونه به لو عاش بعد زمنه بخمسين سنة ، ولكنهم أطلقوا عليه اصطلاح العرف الذى يقابل اصطلاح التحليل النفسى تمام المقابلة وقالوا إنه نموذج حى للزهو المتبرج Dandyism ومنه جاءت كل بلواه ..

وليس الزهو المتبرج كل ما هنالك ، بل هو الزهو الذى يصدى ويغضب كما قال صديقه اندريه جيد الأديب الفرنسى المعروف فى ذكرياته عنه ، وكان يتكلم بلغة عصره — لغة الثورة الفرنسية وأعقابها — فيقول إن

المستبدين ثلاثة : « مستبد يطفى على الجسد ، ومستبد يطفى على النفس ، ومستبد يطفى عليهما معا . أما الأول فيسمونه الأمير ، وأما الثانى فيسمونه الحبر والكاهن ، وأما الثالث فيسمونه الرأى العام »

وكانت لذته الكبرى أن يتحدى الرأى العام ويشيره ، ويتغنى بفضائل الرذيلة أو الخطيئة ، ويكتب وهو يدافع عن الشاعر الفرنسى بودلير — زميله فى الترجسية — : « ان ما يسمى الخطيئة عنصر جوهري من عناصر التقدم تأسن الدنيا بغيره أو تشيخ أو تنصل من كل لون ، فهى بما تنطوى عليه من التطلع تزيد تجارب النوع الانسانى ، وهى بتوكيدها المزايا الفردية تنجينا من ارهاق القوالب المطردة »

وقال : « ان الطيبة على المثال الذى تفهمه السوقه سهله بينة فكل ماتطلبه مقدار من الذعر ونقص فى الفكر المتخيل ومعيار دارج من معايير كرامة المساتير .. »

أما الخطيئة العظمى عنده فهى البلادة ، وعلامات الحضارة عنده اثنتان : الثقافة والفساد

وذهب الى امريكا وعاد منها ينمى على قوم غاية البطولة فى عرفهم ان يكون الرجل على غرار واشنطنون لا يحسن أن يخلق لك كذبة واحدة

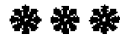
وذهب الى بلدة من بلاد افريقيا الشمالية التى يغشاها طلاب الفراغ وخرج منها وهو يقول لأندريه جيد : « غاية منأى أن أكون قد نجحت فى افساد هذه القرية »

وكتب ونظم وتحدث وعمل ليشر بسذهب واحد يتكرر فى صيغ مختلفة وهو أن الفن والعلم منعزلان وينبغى أن ينعزلا فى مقاييس الاخلاق ..

ومما يستوقف النظر غرام أوسكار وايلد بقصة نرجس فى الأساطير الاغريقية قبل أن يشتق منها النفسيون اصطلاحهم على عادات تلك الآفة الجنسية أو النفسية ، فمن أحاديثه مع اندريه جيد أنه قال له ذات يوم بغير تمهيد : انك تصغى بعينيك . ولهذا أقص عليك القصة التالية :

« لما مات نرجس أصبحت بركته كأسا من الدمع المر بعد أن كانت من الماء الزلال ، وأقبلت عليها الأزهار باكية عسى أن تغنى لها وتغريها . فقلن لها حين رأين هذا ... لا عجب أن تحزنى حزنا على نرجس ، فما كان أجمله وأحلاه ..

« فأجابت البركة : أو كان نرجس جميلا حلوا كما تصفنه !
 « قالت الأزهار ومن ذا الذى يعرف جماله ان لم تعرفيه ؟ لقد كان يمر بنا ولا ينظر إلينا ، ولكنه كان ينحنى عليك ويدمن النظر إليك . وفي مرآة مائك الجميل كان يستجلى بعينه جماله هو في تلك المرأة وعادت البركة تقول : « ولكننى أحبيت نرجسا اذ كان ينحنى على حافتي وينظر الى . لأننى كنت أنظر الى عينيه فأرى جمالى متجليا في تينك العينين » ..



وما كان وايلد الا ناظرا في أعماق سريره حين لمح بواطن النرجسية فلم يلمحها في نرجس وحده ، بل لمحها في البركة معه ، فاذا هي نرجسية متقابلة بمرآتين ..

هذه هي النسخة العصرية من أبى نواس ، وتماها أن أوسكار وايلد كان يتصل بالجنسين ، وكان متزوجا وله ولدان

وأتم من ذلك في المشابهة أن أوسكار وايلد لم يكن يدمن الخمر كما يدمنها أبو نواس . وهذا على دين التحدى بالاباحية هو المعقول فان تحريم الخمر لم يبلغ في مجتمع وايلد تلك الشدة التى بلغها في مجتمع أبى نواس ، فلا اثاره في اعلان حبها هنا كالاثارة التى يتعمدها أبو نواس في اعلان حبها هناك ..

أسرار الغدد

الجنس والنفس

أشرنا قبل ختام الفصل السابق الى فعل الغدد في التفرقة بين الأمزجة ،
والى آثارها المرجوة في علاج أمراض النفس والجسد مع تقدم العلم
بأسرار كل منها على حدة أو على التعاون بينها وبين الغدد الأخرى

وكل ما عرفه العلماء حتى اليوم من الأسرار لا يعدو أن يكون مقدمة
وجيزة من كتاب ضخيم متعدد الأجزاء والأبواب ، ولكنه على قلته
يبدو كالخوارق التي لا تقبل التصديق لولا أنه محسوس مؤيد بالتجربة
المتكررة ، وسينجلي من أسرارهِ مع الزمن ما يعلم المنكرين المتهجمين كثيرا
من الاناقة والروية قبل التهجم والانكار .. فان الذين استغربوا أسرار
الروح بالأمس فأنكروها لغرابتها ليحارون اليوم بين تلك الغرابة وبين
الغرابة التي تحيط بكل غدة من هذه الغدد في عملها المفرد وعملها المرتبط
بغيرها . ان أغرب الغرائب ليدخل في حكم المؤلف اذا قيس الى هذه
الغرائب ، وهي كما أسلفنا لما تجاوز مقدمة الكتاب ..

هذه الغدد تعمل معا كالفرقة الموسيقية التي يعطى كل منها اللحن الذي
يناسبه ويناسب آلات الفرقة بأجمعها

بل هي في تجاربها أدق من ذلك وأعجب .. لأن الآلة الموسيقية اذا
اختلفت في أداء لحنها لم تصلحه لها آلة أخرى . أما هذه الغدد فكل
اختلال فيها تتصدى لاصلاحه غدة أخرى بعينها ، واذا اختلفت غدتان في
وقت واحد تعاونت الغدد الأخرى على تعويض عملهما ، وبادرت كل
واحدة منها الى أداء مهمة لم تكن تؤديها قبل ذلك ، ولا يقع الاختلاط
بين هذه المهام المتقابلة ، أو المتناقضة في بعض الأحوال ، الا اذا كان

الفساد قد عم البنية جميعها فلا يرجى لها صلاح
والمعروف من عملها حتى اليوم في توجيه الجنس وتحويل الأحوال
النفسية يهول العلماء بما يرونه اليوم وما ينتظرون غدا أن يروه ، ويحسب
بعضه من الحقائق المقررة ويحسب بعضه الأكبر من الفروض والتأويلات ،
بل من الظنون والتخمينات ، وهذه هي المرحلة الخطرة في طريق هذا
العلم الجديد .. لأنها توجب الحذر والالتباه ، وقد يفوت الأوان إذا توغل
الباحثون مندفعين وهم لا يحذرون ولا يتنبهون

لقد مضت القرون الأولى ودراسة « الجنس » مهملة أو مسكوت
عنها باتفاق العلماء والجهلاء على السواء ، وقد تواطئوا جميعا على
السكوت لأنهم لم يفلتوا بعد من أسر الطوطمية وتحريماتها ولا من وهم
المتوهمين أن العلاقة الجنسية دنس معيب أو أنها وصمة مخجلة لمن يتحدث
بها ولمن يسمعها ولمن يعنى بها ولو للعلم والعلاج

ثم اندفع العصر الحديث من الحظر الى الثرثرة بالجنس في الدراسات
وغير الدراسات ، وأوشك الخطر من الافراط في القول أن يضارع الخطر
من الافراط في السكوت ، أو يزيد عليه

وهذه كما أسلفنا مرحلة الحذر والالتباه ، يواجهها الباحث كما
يواجهها القارئ والسامع ، وبخاصة حين نذكر أن كثيرا من البحث في
هذه المرحلة ضرب من الظن والتخمين

ووسيلتنا نحن في الحذر والالتباه ، أن نقسم أقوال الباحثين النفسيين

في مسائل الجنس الى قسمين : ملاحظات ، وتعليقات أو تخريجات

فأما الملاحظات فالكثير منها مقبول مقصور على الوقائع والمشاهدات

وأما التعليقات فالكثير منها تخمين يجوز عليه مايجوز على كل تخمين ،

ولا استثناء في هذا الحكم لمذهب أحد من المتخصصين أو غير المتخصصين

فما اتفقت مدارس التحليل النفسى على أساس واحد من أسس البواعث

النفسية الكبرى ، فما الظن بغير الأسس من الفروع والتشاييب ؟

وليس أشهر في هذه المدارس النفسية وما إليها من مدارس فرويد

Freud وونج Jung وأدلى Adler ورائك Rank وسليمان

Sullivan وهورني Horney وفروم Fromm وبرنزهورن Prinzhorn

وهم أقطاب النفسين في القارة الأوروبية ولا نذكر النفسين في إنجلترا وأمريكا لأن أقطابهم لا يتوسعون في علم النفس « السيكولوجي » إلى التطبيق وتعليل الأخلاق على مثال المدارس الأوربية ، ولا سيما مدارس أوروبا الوسطى ، وأعلى ما ترتفع إليه هذه المدارس عندهم أنها بمثابة المحاولات البوليسية للكشف عن الأمراض بدل الجرائم والجنايات ..

وإذا سألنا هذه المدارس عن الدافع الأكبر في النفس الانسانية فماذا نسمع ؟ أهو الجنس ؟ أهو تغليب الشخصية ؟ أهو الغريزة الاجتماعية ؟ أهو الدوافع الواعية ؟ أهو الدوافع غير الواعية ؟ وهل هي موروثية أو مكتسوبة ؟ وهل هي قابلة للتعديل قبل الولادة أو بعد الولادة ؟

إن الجواب عن كل سؤال من هذه الأسئلة خمسة أجوبة أو ستة لا تتفق مدرسة واحدة على أحدهما كل الاتفاق ، فضلا عن الاتفاق عليها بين المدارس المتعددة . وربما ابتدأ الباحث منهم برأى في تجاربه الأولى ثم عدل عنه إلى غيره في تجربة لاحقة ، ولا يستطيع في الحالتين أن يقول إنه يقرر . « علما » قاطما باليقين ، منزها عن ظنون التأويل والتخمين ، وربما اتفقوا على الاصطلاح كما تتفق مدرسة فرويد فيما بينها على اصطلاحات أستاذها التي يطلقها على دوافع الوعي الباطن ودوافع النزعة الحيوية ، من قبيل الايد id والليد Libido والذات العليا Super-ego إلى أشباه هذه الاصطلاحات المخترعة .. ثم يفسرونها ويشرحون محورها الذي تدور عليه فإذا هم أشتات متفرقة في التصوير والتعليل ، ينقض أحدهم ما يثبت زميله ، وقد ينقضون جميعا ما أثبتته الأستاذ عند وضع الاصطلاح أو عند التصرف فيه بعد المراجعة

وأولى الأقطاب النفسين بالحذر من تعليلاته وتعميماته هو رائدهم الأول سيجموند فرويد . وإنما كان الأولى بالمحاذرة لأنه الرائد الأول وفيه إلى جانب فضائل الرواد كل عيوب الارتياح ، ومنها الاقتحام

فالفضل الذى يشكر عليه فرويد لا نزاع فيه بين مؤيديه ومخالفيه ، فقد دخل بالتحليل النفسى فى دور جديد لم يسبق اليه ، ولكنه وثب منه الى تعليقات وتعميمات لا تستند الى الوقائع والمعلومات ، وقد تبطلها وتفندھا جميع الوقائع والمعلومات ، كدعواه الأخيرة عن ارادة الموت فى الانسان ، وأنها ارادة كامنة فيه كإرادة الحياة

وقد بدأ فرويد عمله بالعلاج الطبى ، ثم عكف على دراسة الأعصاب وانتقل منها الى دراسة الحالات النفسية وهو فى نحو السادسة والثلاثين ، ثم بنى فلسفته فى مسائل الجنس النفسية على أحوال العلاج أو على حجرة الاستشارة Consulting Room كما يقول ناقدوه

وكان أستاذه فى طب العلاج النفسى الدكتور بروير Bruer الذى نقل هذا الطب من تجارب التنويم المغناطيسى وشعوذاته الى الإحياء البرىء من الشعوذة ، وكان معوله الأول فى علاجه على قاعدة «التسرية» أو رد الفعل التمثيلى Abreaction وهى تلخص فى البحث عن الصدمة العصبية التى أحدثت المرض ثم إعادة تمثيلها للمريض بحيث يشعر بمشأ العلة فى نفسه ، وقد استمد هذا العلاج من الراحة التى يشعر بها الانسان اذا رأى شكواه النفسية ممثلة فى قصة يقرأها أو ينظر اليها على المسرح ، فأصاب فى الملاحظة ولم يتوسع فى القياس

ولكن فرويد زاد على الصدمة العصبية التى يعرفها المريض أنه بحث عن صدمات الوعى الباطن والصدمات التى لا يعيها أحد ، فكان على بر الأمان وهو يتتبع الأعراض المرضية فى كل مريض على انفراد ، ولكنه لم يلبث أن وثب من حجرة الاستشارة الى العالم بأسره والى النوع الانسانى من أبعد نشأته ، بل الى الكيان الحيوانى ومن ورائه الكيان المادى الذى يخبط فيه فلاسفة ما وراء الطبيعة ولا يجسبونه فى علم التجربة والمشاهدة ولا يستخرجون منه علاج الأبدان والأخلاق

وحسبك حذرا من تعليقاته وتعميماته أنها تجعل الشذوذ أساس الحياة الانسانية ، فكل انسان مصاب بعقدة الأب أو عقدة «أوديب» المكبوتة ،

وكل انسان عرضة من جراء هذه العقدة للقلق في بيئته النفسية وعلاقاته الخارجية ، وليست العقائد والشعائر والعبادات والفنون الا تعبيراً عن هذا القلق أو دفاعاً عن النفس أمام طغيانه في داخلها وخارجها وعقدة أوديب هذه ماهي ؟ وفي أى عصر كان الانسان الهمجي براء من كتبها ؟ ..

ان عقدة أوديب Oedipus Complex هي غيرة الابن من أبيه على أمه وتقابلها عند المرأة عقدة الكترا Electra وهي غيرة البنت من أمها على أبيها ، ويقول فرويد أن هذه العقدة ترجع الى أيام قيادة القطيع ثم قيادة العشيرة ثم كفالة العائلة ، وفي هذه الأدوار يوجد ذكر واحد — وهو الأب — مستأثراً بجميع الإناث في القطيع أو العشيرة أو العائلة ، وتنجم نزعات الانحراف الجنسي بين سائر الذكور ، كما تنجم بينها المؤامرة على قتل الأب تخلصاً من احتكاره لللاث ..

هل شوهدت حالة من حالات الجماعات الانسانية كانت سابقة لهذا الكبت المزعوم ؟ هل توجد الآن حالة كهذه بين الجماعات الهمجية التي تقاس عليها الجماعات البدائية في الأزمنة السحيقة ؟ وان كان هذا التطور معرقاً في القدم فكيف عرفناه ؟ هل وجد بين جماعات الحيوانات مثال لهذه النوازع يتأتى لنا أن نشاهد مايقاس عليه ؟

من المحقق أن كل ماشوهد ويشاهد من أطوار الجماعات الانسانية أو الحيوانية لا يسمح بهذه الوثبة الطويلة العريضة في التعليل والتعميم على أن الوثبة الطويلة العريضة لم تقف عند أطوار الانسان الأول أو الحيوان الأعجم ، بل جاوزتها بعيداً جداً الى ماوراءها فاستخرجت من أطوار المادة « غير العضوية » مايسميه فرويد غريزة الموت ويكاد يحصر فيه كل دفعة لا تحتويها الغرائز الجنسية

ففى طوية الانسان — على رأى فرويد — دوافع ضارة به تمهيء له طريق الموت من حيث لا يشعر ولا يريد ، ومرجع هذه الدوافع حنين المادة في كيانه الى حالتها الأولى قبل الحياة ! ..

هذا ضرب من التعليقات التى تنقض الحس والعلم والملاحظة ولا
يمزها اللفظ فى عبارة فرويد نفسها اذا أراد أن نفهم من اللفظ أصدق
معانيه ..

فهل فارقت المادة فى الجسم الحى شيئاً من خصائصها « غير العضوية »
حتى يقال إنها تنحى الى معاودته ، وأن حنينها الى معاودته هو الذى يسمى
بغريزة الموت .. هل فارقت قانون الجاذبية ؟ هل فارقت قوانين المليون
والاضاءة ؟ هل فارقت قانوننا واحداً من قوانين الطاقة سواء نظرنا الى
الطاقة الحيوية كأنها طاقة مادية أو طاقة روحانية ؟

الواقع أن المادة تحافظ على خصائصها هذه مع قوة الحياة كما تحافظ
عليها مع كل قوة ، وينبغى أن يقال اذن أن غريزة الموت تعم الكون كله
مادامت للمادة هذه المقاومة أو هذا القصور الذاتى مع كل طاقة . فمن
أين جاءت الطاقة التى لا تحتويها المادة ؟ والى أين ننتهى اذا نحن ذهبنا
تتخبط فى هذه التعليقات والتعميمات

اننا لا نستطيع فى هذا العصر أن نصف المادة حتى « بالقصور الذاتى »
الذى يعزلها عن الطاقة ، ولا نستطيع أن نقول إنها ذات طاقة تريد مالا
تريده الحياة ، ولو كان معنى الارادة المقصود أنها تطيع قانوننا لافكاك
لها من طاعته فلا نستطيع أن نفهم غريزة الموت على أى معنى من معانى
فرويد ومدرسته وكل معنى نفهمه قد يصدق على المادة التى تحيط
بالجسم الحى والمادة التى تكمن فيه

أقل ما يقال عن هذه التعليقات والتعميمات أنها لم تثبت حتى يسوغ
لنا أن نثبت مايقوم عليها ، وغاية ما تنتهى اليه أنها خواطر موحية تسمى
الى مواضع البحث والمناقشة ، وتتفرق الى كل مفترق حتى يختار منها
الناقد ما هو آخرى بالاتباع

فمن أراد أن ينظر فيها على أمان فلينظر اليها كأنها ضرب من الحدس
لا يزال يتردد بين الافتراض والاحتمال ، وليأخذ به على حسب اقترابه
من المعرفة العلمية فى تجارب الغدد وتطور الوظائف الجنسية

ونسبها المعرفة العلمية عمدا للتمييز بينها وبين العلم المقرر ، اذ لم تبلغ المعرفة بالعدد وتطور الجنس مرتبة العلم المقرر الذي تتفق عليه جميع المذاهب وتتساوى تجاربه في كل حالة ، وليس من السهل أن يرتقى الى هذه المرتبة في مدى هذه السنوات القصار ، لأنه متعلق بحياة الحيوان والانسان ولا يسهل ضبط الملاحظات على نمط واحد في جميع الاحياء ومن المعرفة العلمية العامة أن العدد الصماء وثيقة العلاقة بتكوين الجسم وتكوين وظائفه الجنسية على الخصوص ، وهي الغدة النخامية والغدة الصنوبرية في الدماغ ، والغدتان الدرقيتان والشبهيان بالدرقيتين في الرقبة ، والغدتان السعتريتان في أعلى الصدر ، والغدتان الكظريتان فوق الكليتين والخصيتان في الرجل والمبيضان في المرأة وليس من غرضنا في هذا السياق أن نتوسع في شرحها وبسط وظائفها وانما نكتفي بالمعلومات الجديدة عن كل منها فيما يتعلق بالوظائف الجنسية والأطوار العاطفية أو النفسية

فقد كان المنظور قبل هذه الكشف أن الخصيتين والمبيضين هي الغدد الجنسية دون غيرها في جسم الرجل والمرأة فتبين بعد مراقبة الانسان واجراء التجارب الكثيرة على الحيوان أن الغدة النخامية ذات أثر كبير في تكوين خصائص الحي ومنها خصائص الرجولة والأنوثة

الجنس

فالخصية تفرز الخلايا المنوية والخلايا البينية Interstitial المعروفة باسم خلايا ليدج Leydig وهي التي ترتبط بها صفات الرجل الثانوية ، فيشبه الرجال في بعض الصفات ويشبه النساء في صفات أخرى على حسب افراز الخلايا البينية (١) وهي تتلقى التنبيه بافراز من الغدة النخامية وتتوقف سلامتها على سلامة هذه الغدة

(١) كتاب الغدد الصماء Endocrinolog تأليف ودنر Werner

وتبين من تجارب الدكتور ستيناخ Steinach أن وقف الخلايا المنوية يضعف افراز الخلايا البينية ويجدد الحيوية

ومن تجارب الأستاذ زوكرمان Zuckerman أستاذ التشريح بجامعة برمنجهام أن الطيور وسائر الحيوانات التي يراد تأخير مواسم الولادة عندها تتغير مواسم الحمل عندها بمقدار ما تتعرض له من النور ، وأن التجارب المتكررة أظهرت أن هذا التأثير يسرى من غدها النخامية الى غدها التناسلية ، وينقطع أثره في الأحيان التي تستأصل الغدة النخامية منها ..

وإذا أفرط عمل الغدة النخامية تضخم الجسم وأصابه المرض الذي يسمى بمرض الافراط النخامي Hyper-pituitarism فتطول العظام وتمتد القامة نحو ثمانى أقدام

وتتعاون الغدة الدرقية والغدة السعترية على انماء الجسم الى سن المراهقة ولكن الغدة الدرقية موكلة بنمو التطور والغدة السعترية موكلة بنمو الحجم والبدانة . فاذا حقنت الشفدع (فرخ الضفدع) بافراز الغدة السعترية كبرت وتضخمت وهى على شكلها ، فاذا حقنت بافراز الغدة الدرقية تطورت وتحولت الى ضفدع وهى على حجمها

ويحدث عند ضمور الغدة الدرقية أو ازلتها مرض التوقف العقلى والبدنى Cretinism فلا يتقدم المصاب به من حالة الطفولة العقلية أو الجسدية ..

وفهم من هذا ان النمو مرتبط بالغدد جميعها ولا يرتبط بالغدد الجنسية أو التناسلية وحدها

ولابد من استمرار الغدة الدرقية فى أداء وظيفتها قبل المراهقة وبعد البلوغ وتمام النضج فى الجنسين . أما الغدتان السعترية والصنوبرية فتتموان الى سن المراهقة ، ثم تسلمان الجسم الى عمل الغدة التناسلية التى تبدأ فى تلك السن وظيفتها المولدة

وشاهد فعل الغدة الكظرية فى الصفات الجنسية ، فتبين أن الطفل

الذى تختل غدته الكظرية قبل الولادة يصاب بحالة شبيهة بحالة الجنس
المشكل Pseudo-hermaphroditism الذى يتميز فيه الجنسان ببعض
الصعوبة ..

أما اذا اعتراه الخلل بعد الولادة فقد تتميز فيه صفات الجنس
وتصاحبها سرعة المراهقة ، فتظهر ملامح الذكورة أو الأنوثة في الخامسة
أو السادسة ..

وقد تصاب الغدة بعد سن المراهقة فینبت الشعر على جسم المرأة
ويغلظ صوتها وتشتد عضلاتها

وقد بسط بروستر Proster في كتابه « غلاف الغدة الكظرية »
Adrenal Cortex أحوال نحو عشرين فتاة أصبن في غلاف غدتهن
الكظرية فغلظت أصواتهن وتغطت بطونهن بالشعر وأشبه البظر عندهن
شكل الذكر الصغير ، ولا يلزم في جميع هذه الأحوال أن تتغير أطوارهن
الانثوية ، وقد يشفى غلاف الغدة ويخف ورمه فتزول هذه الأعراض
وتعود الفتاة الى أنوثتها

ويشاهد على وجه التقريب أن العواطف والأحاسيس ترتبط بأعمال
الغدة الكظرية ، وأن أعمال الدماغ ترتبط بالغدة الدرقية وأن تكوين
العضل يرتبط بالغدة النخامية

أما الغدة الصنوبرية فعملها مهم جدا ولكنه لم يتميز من عمل الجزء
المقارب لها من الدماغ Hypothalmus فلا يتيسر الآن على سبيل
اليقين أن يعرف أى هذه الآثار من فعلها وأيها من فعل الدماغ كله

ويذكر للفيلسوف ديكارت على سبيل الإعجاب ببداهته الفلسفية أنه
أدرك شأن هذه الغدة قبل ثلاثة قرون ويخطر له أنها مركز القوة الروحية
وعزز هذا الخاطر عنده أنه رآها الغدة المفردة دون غيرها بين غدد الجسم
كله ، ويعترض عليه المحدثون بانفراد الغدة النخامية ، فيرد عليهم أنصاره
مشيرين الى انقسام الغدة النخامية كأنها غدتان .. !

وكل غدة من هذه الغدد الصماء تفرز في الدم مباشرة مادة خاصة بها يطلق عليها اسم الهرمون من كلمة هرماء Hormao اليونانية بمعنى التنبيه أو التحريض ، وكل هرمون من هذه الهرمونات يؤثر في الهرمونات الأخرى ويتأثر بها ، ولا ينحصر تأثيره في مفرزات الغدد الصماء دون غيرها بل يسرى الى الغدد الأخرى للتعاون تارة والمقاومة أو التعويض تارة أخرى وقد لاحظ الأستاذ هوسى Housay من بونيس ايريس بالأرجنتين انه عند استئصال البنكرياس والغدة النخامية معا من جسم الحيوان لا تنشأ من ازالتهما الاصابة بمرض السكر كما تنشأ من ازالة البنكرياس وحده (١) ولوحظ مثل هذا التجاوب بين الغدد التي تفرز هرموناتها في الدم مباشرة كالصماء أو تفرزها بالواسطة كالغدد الأخرى

ودلت مراقبة التوالد في الكائنات الحية على أن هذه الغدد تبدأ في الظهور مع انقسام الجنسين ، ولا تتميز خصائصها كل التمييز في أنواع الأحياء التي تميزت فيها الذكورة والانوثة

وهنا ينبغي أن نذكر أن الأحياء توالدت قبل أن يكون فيها جنسان متميزان ..

فالاميبا Amoeba مثلا — وهي حيوان من خلية واحدة — تتوالد بالانقسام ، فتشقق الخلية شقين ينمو كل منهما حتى يستوفي نموه ثم ينشق مثل هذا الانشقاق ..

ويتم التوالد في احياء أرقى منها بالتتوء أو الازهار تشبيها له بتتوء الكم من فرع الشجرة فاذا أدرك الحيوان سن الولادة شوهد على ظاهره تتوء يكبر حتى ينفصل ويستقل بكيانه ، ويجرى السؤال على هذا النحو في الأحياء التي تتعدد خلاياها ومنها بعض ديدان الماء والطحالب

(١) الغدد التي في داخلنا تأليف جون إبلنج
« The Glands Inside Us », by John Ebling.

التوالد

ويتم التوالد في أحياء أرقى من الطحالب بالطريقة الجرثومية *Polysporogonia* أى بانعزال بعض الخلايا داخل الجسم وتطورها حتى تشابه جرثومتها الاصلية ، ثم تخرج من جسم الحيوان كالجنين من الرحم ، وتأخذ في النمو ثم التوالد على هذا المثال ، والحيوانات المرجانية والدودة المتشعبة من هذا القبيل ..

ويلى هذا التوالد الجرثومى توالد متوسط بين هذه الطريقة وطريقة الحيوان ذى الجنسين ، ويسمى البوغية أو الغبارية *Sporogonia* ويجرى التوالد فيها بانعزال خلية واحدة من الجسم تبدأ بالنمو بعد انعزالها وتتعدد خلاياها وهى فى جسم واحد حتى تشابه أصلها الذى نشأت فيه ، وهذه الطريقة شائعة فى بعض الفصائل من النباتات السفلى ويلى الطريقة البوغية طريقة تسمى بالتوالد العذرى *Parthenogenesis* ويكاد يحسبها بعضهم نكسة من طريقة أرقى منها

فتتولد من الحيوان جرثومة قابلة للنمو بغير تلقيح ، وهى نفسها قد تلقح فيختلف الناتج ، كما يحدث فى جراثيم النحل الذى تنمو خلاياه غير الملقحة فتصبح ذكورا وتنمو خلاياه الملقحة فتصبح اناثا ، ولا يبقى النوع بغير هاتين الطريقتين

ومن الأحياء الطفيلية ما يجمع بين الذكورة والأنوثة ، ومنها مايجرى التلاقح فيه بين حيوانين كل منهما لاقح وملقوح ، كالدودة التى تسمى دودة الأرض *Earthworm* والقوقعة الحلزونية *Snail* وأعلى من هذه الطبقة قليلا حيوانات تتناوب الذكورة والأنوثة موسما بعد موسم ، فالمحار *Oyster* أثنى ويصبح ذكرا فى موسم تال ، وقد يرتد الى الأنوثة فى موسم يليه ..

والطبقة التى تعلو على هذه الطبقة هى طبقة التوالد من جنسين مستقل كل منهما بوظيفة لا يؤديها الجنس الآخر . والمسافة شاسعة جدا بين أدنى

الحيوانات من هذه الطبقة وبين الانسان ، ولكن الانسان مع هذا لا يزال محتفظا في كيانه بأصول التوالد في طبقات الأحياء ، ويوجد في شبك المبيض مثلا جزء كخصية الرجل ولا يقال فيه إنه الجزء المقابل للخصية وحسب ، ويصح أن يقال بعبارة أخرى أن كل أنثى تطوى في لباب المبيض « مشروع » خصية (١) قد ينمو حتى يعمل عمل الخصية في الذكور ويغير أطوار المرأة في صفات الجنس الثانوية

ويؤخذ من شواهد متكررة أن مبيض الأنثى يفرز الهرمون المذكر المسمى بالاندروجين Androgen كما يفرز الهرمون المؤنث المسمى بالاستروجين Estrogen . ومن التجارب في الحيوان أن الدجاجة التي يستأصل مبيضها يضر عرقها ولا تعود إلى النمو الطبيعي إلا إذا ألقحت بالاندروجين دون الاستروجين ، مما يفيد أن مبيض الدجاجة لا غنى له عن افراز الاندروجين لاستقامة كيائها

ويحتاج الذكر كما هو معلوم إلى وقت للنضج واستيفاء كيان الرجولة أطول من الوقت الذي تحتاج إليه المرأة ، فينضج الشاب في نحو العشرين وتنضج الشابة في نحو الثانية عشرة فإذا ألقح الحيوان بهرمون المرأة - أي الاستروجين - بكر نضجه والتحت كراديس جمجمته Epiphyses قبل الأوان ..

والمعلوم أن الذكر في الحيوانات الفقارية أجسم من الأنثى فإذا خصى الذكر والأنثى من صغار الحيوانات فالخصى يعطل نمو الذكر ويعجل نمو الأنثى ، كأنما هرمون الأنثى يعطل النمو فإذا غاب نما الجسم وإذا بقي أبطل نموه . ويجرى العلماء هذه التجربة على نحو آخر . إذ يلقحون ذكور الجرذان وأنثاهما بالاستروجين فيتعطل نمو الذكور والأنثى (٢) كذلك يحدث تضخم البروستاتة في الشيخوخة لنقص افراز هرمون

(١) تقرير نوفاك ولونج عن أورام المبيض وملاحظات بالتغيرات الجنسية الثانوية
Ovarian Tumours Associated with Secondary Sex Changes by Novak and Long.

(٢) « الفساد التي في داخلنا » تأليف جون إبلنج
« The Glands Inside Us », by John Ebling.

الذكر ، أى الاندروجين ، وزيادة افراز هرمون الاثى ، أى الاستروجين ويشاهد على الأغلب أن أثر الاندروجين فى عموم الجسم أقوى من أثره فى جهاز التناسل مباشرة ، فإذا نقص نقصت فى الرجل صفات الذكورة الثانوية وإن لم يضعف جهازه التناسلى فتغلب عليه بعض أطوار الانوثة ولا تتعطل قدرته على التوليد .

ومن هذه المشاهدات المتكررة يجنح ذوو التجارب الى القول بأن غياب أطوار الرجولة يبرز أطوار الانوثة ولا يحدث عكس ذلك ، أى أن غياب أطوار الانوثة لا يعطى الرجل صفات جنسه النفسية أو الجسدية

وأيا كان مقطع الرأى فى هذه التجارب فالثابت من أطوار الصبغيات والناسلات أن أنوثة الجنين مطردة حيث يغيب الصبغى الذى ينفرد الذكر بافرازه ، وانه حيث يوجد هذا الصبغى يكون الجنين ذكرا على الدوام فمن عجائب الخلقة أن الخلايا المولدة التى تصل الى رحم المرأة تبلغ نحو مائتى مليون خلية . كل خلية منها تحتوى على أربعة وعشرين صبغيا وكلها متشابهة الا بعض صبغيات الذكر ، فإن الصبغى الرابع والعشرين منها يشتمل على خلية واحدة ذات جزئين مختلفين ، ولا يأتى هذا الاختلاف الا على النسبة التى يتعادل بها عدد الذكور وعدد الاناث فى النوع الانسانى بوجه التقريب ..

وأعجب من ذلك أن هذا الصبغى Chromosome يعين جنس المولود ولكنه لا يعين الطباع الموروثة ، بل يرجع توريث هذه الطباع الى الناسلات Genes فتنتقل الى بعض الذرية ولا تنتقل الى بعضها ، لأن الناسلات تتزاوج وتتلاقى ناسلات الأب وناسلات الأم . ويختلف الولدان من ثم فى الذرية الواحدة ولا يندر أن يكون الذكر وارثا لصفات أمه وأن تكون الاثى وارثة لصفات أبيها ، بل لا يندر أن تكون الصفات الموروثة منقول من الأجداد والأسلاف : صفة من الجد الأبوى وصفة من الجد الأموى ، وكلتا الصفتين قد خفيتا فى الأب والأم على السواء . وكثيرا ما يرث الولد استعدادا تحوّل البيئة دون ظهوره ، ولكنه

لا يكسب في البيئة خلقا لم يكن على استعداد له بتكوينه
وقد تقدم أن الصبغيات في النوع الانساني أربعة وعشرون أحدها هو
الذى يعين الجنس فينمو الجنين ذكرا أو أنثى على حسبه ، ويبقى ثلاثة
وعشرون صبغيا تعمل في تكوين الجنين ، فهذه الحقيقة يبنى عليها بعض
العلماء رأيا قويا في تحليل الوراثة المختلفة ، ويسمون هذه الصبغيات
بالمستقلة أو الذاتية Autosomes تميزا لها من الصبغى المختص بتعيين
جنس المولود ، ولم ينكشف بعد من مراقبة مواليد الانسان ما يكفي
للجزم برأى في علاقة هذه الصبغيات الثلاثة والمشرين بوراثة الأخلاق
والمزايا لأن التجارب على الحيوان لا تصلح للقياس عليها
ولكن العلماء يتابعون البحث على هذه الخطوط الواسعة أملا في
الوصول الى تعيين عمل الصبغيات جميعا في نقل الأخلاق والخلل
الموروثة ، وهو بحث عويص مخوف بالمجازفات والصعوبات ، ندرك
شيئا من صعوباته كلما أحضرنا في خلدنا دقة الناسلة التى تعد بمئات
الملايين في افراز الغدة الواحدة ، وتحمل فيها مظهر وما خفى من خلائق
الآباء والأجداد من طرفى الأبوة والأمومة الى أجيال لاندرك أولها في
القدم ولا نهايتها في المستقبل . ومن المجازفة الشديدة أن يتصدى أحد
— بالغا ما بلغ علمه — لمحاولة التعديل في مثل هذه الناسلة الدقيقة حتى
يمحو منها خلقا أو يسويه من عوج الى اعتدال

الفوارق بين الجنسين

وبعد فهذه عجالة توخينا الالمام فيها بما هو ضرورى من المعارف
العلمية من أعمال الغدد وتطور الوظائف الجنسية ، فما هى النتيجة التى
تنتهى اليها ؟

انها لا تنتهى بأية حال الى تهوين الفوارق بين الجنسين ولا الى زعم
الزاعم أن الانسان مزدوج الجنسين Bisexual مختلط الذكورة والانوثة
بطبيعته ، وان الشذوذ الجنسى فيه فطرة عامة تتخذ اطوارها على حسب

العمر من الطفولة الى تمام النمو في الجنسين ، كما يقول فرويد ومتبعوه : ان النتيجة التي تنتهي اليها بحوث المختصين بتطور الجنس لا تنتهي الى هذه النتيجة ، بل تنتهي الى نتيجة تناقضها ، وهي ان الفوارق بين الجنسين تتمدد وتتوزع وتتشعب حتى لا يكفي لتمييزها جهاز التناسل وحده ولا بد معه من دلائل أخرى تنطوي فيها وظائف الغدد وسائر أطوار البنية ..

واذا كانت هذه الخصائص لا تتوافر جميعا في بنية واحدة فهذا شأن جميع الخصائص في كل تركيب من تراكيب الاحياء أو الجماد فلا يوجد انسان ولا شجرتان ولا حجران على مثال واحد ، ولا يلزم من عموم المادة الكربونية مثلا ان الفحم والماس والسكر أشباه لا فوارق بينها في جميع المزايا والقيم والاعراض

وللنوع الانساني ولا شك خصال عامة يشترك فيها الجنسان ولكن التطور الجنسي لم يتقدم هذا التقدم ليتشابه الجنسان في النهاية وانما تقدم الجنس لتظهر بينهما الفوارق اللازمة ، ويبقى كل منها بعد ذلك انسانا فيما عدا هذه الفوارق لأنها لا تخرج الذكر من انسانيته ولا تخرج الانثى من انسائيتها ولن يكون النوع الذي ينتمي الى نوعا واحدا اذا اختلفا في كل شيء

وقد وجدت حالات من الشذوذ الجنسي لا شأن لها بالخصائص الموروثة ومرجعها كلها الى العوارض الاجتماعية أى العوارض التي تطرأ بعد الولادة ..

فالذين راقبوا الشذوذ الجنسي في الحيوانات وجدوا انه يعرض للقردة والكلاب وبعض الطيور كالحمام . ولكنه لا يعرض لها الا في غيبة الاناث وحين يتربى الذكور من هذه الحيوانات في مكان واحد تنعزل فيه ولا تظل على شذوذها بعد اختلاطها باناثها

والذين راقبوا الشذوذ الجنسي في القبائل البدائية وجدوا كذلك أنه

يعرض للناشئين وهم منعزلون في المزارع والغابات ، ثم يتعقبونه بالسخرية والاشمئزاز .. (١)

وهذه هي العوارض التي يتخذها بعضهم شاهدا على النزعة الفطرية في الشذوذ الجنسي لأن الحيوانات والهمج يباشرونه كأنما كانت استقامة الفطرة وقفا على الحيوان والهمج المتخلفين عن المدنية.

وقد درست في عواصم المدنية أحوال الشواذ المحترفين فلم يوجد بمعظمهم شذوذ في تكوين البنية ، ودلت دراستهم وفحصهم على أنهم يحترفون البغاء طمعا في الكسب ولا ينقادون للغواية بدافع فطري من النزوة الجنسية ..

وتفعل البواغث النفسية فعلها في حالات شتى من الشذوذ الجنسي الذي لا يقبل التعليل بغيرها ولا يتأني خلوه منها ، إذ لا يخفى أن الصلة بين الرجل والمرأة لا تقوم على الوظيفة التناسلية بمفردها ، بل تسبقها في المجتمعات المتحضرة ومجتمعات البداوة أحيانا أشواق نفسية ومطالب اجتماعية ، فيجوز أن يكون الرجل سليم البنية ولكنه لا يروق المرأة ولا يثير شعورها أو يستولى على عواطفها ، ويجوز أنه يشعر بذلك فيحجم عن طلب المرأة هربا من المهانة وآلم الخيبة ، ويجوز أن يحس من نفسه ضعفا فيتجنب الصلة التي تخجله أمام شريكته ، ويجوز أن ينفر من امرأة واحدة ذات شأن عنده ، أو ينفر من امرأة واحدة أضرتة واحتقرها أو احتقرته فيسحب احتقاره على جميع بنات جنسها ، ويجوز أمثال ذلك كثير من علل الشذوذ الجنسي الذي ينفر صاحبه من المرأة ولا يمكن أن يخلو من البواغث النفسية

فاذا قيل مثلا أن الناشئ الذي نقصت وظائف الرجولة عنده يتشبه بالنساء وينقاد لشهوات الرجال ، أو قيل أن الناشئة التي جارت فيها هرمونات الذكورة على هرمونات الانوثة تتشبه بالرجال وتتشق بنات جنسها ، فكيف يمكن أن نعلل بعلة الهرمونات حالة الناشئ الذي لا يحب

(١) النمو في غابة الجديدة تأليف مارجريت مين

المرأة ولا يميل بعاطفته الجنسية الى غير أبناء جنسه ؟ ان زيادة الهرمونات المذكورة خليفة أن تصرفه الى الافراط في حب الاناث ، وإن نقصها خلين أن يلحقه بالمتأثنين : أما الرغبة الجنسية التي تقيّد الرجل بأبناء جنسه فليس لها تعليل معقول من قبل الهرمونات ولا بد من الرجوع بها الى الحالات النفسية والعادات العارضة ، سواء نشأت من ظروف المجتمع أو من البيئة المنزلية في نطاقها المحدود

وقد أحصى هرشفيلد Hirschfield وستيكل Steckel وستيناخ Steinack وغيرهم حالات كثيرة يعزى النفور فيها من المرأة الى علل نفسية ولا ارتباط لها بفعل الهرمونات وما اليها ..

احدى هذه الحالات حالة فتى كان يحب أمه حب العبادة ثم ماتت فوق في صندوقها على رزمة من الأوراق قرأها فوجد انها رسائل غرامية ، وعلم منها أن أمه كانت تخون أباه وتخون عشاقها وأنهم كانوا يتبدلون في الكتابة اليها عن أفانين الرذيلة التي كانوا يقتربونها معها ويستعيدون ذكراها ..

واحدى هذه الحالات حالة فتى أصابه المرض من امرأة يهاها وغيرها حالة فتى أذله فتاة وصدمته في كبريائه فجعل يتمثلها في كل فرد من بنات جنسها ، وأشياء ذلك حالات تخصى بالمشات

فمن السخف أن يقال — اعتمادا على المعرفة العلمية في مسائل الغدد وتطور الوظيفة التناسلية — أن هذه المعارف أثبتت أن الشذوذ الجنسي طور من أطوار العمر كما هو مذهب فرويد وشيعته ، أو أن الشذوذ الجنسي جنس ثالث مستقل بين الذكورة والانوثة كما هو مذهب هرشفيلد وطائفة من تلاميذه ، وكل ما يصح بعد هذه المعارف العلمية في العصر الحديث أن الشذوذ الجنسي قد يرجع الى أصل في البنية ، وأنه قد يرجع الى علل نفسية أو عوارض اجتماعية ، ويجزم طبيب من أقطاب النفسين الجنسيين بنفى العلل البيولوجية . ويقصر علل الشذوذ كلها على الصدمات العصبية والعادات المكتسبة . وهذا الطبيب هو ولهم ستيكل الذي كان

مديرا للكلية الطبية بجامعة فيينا ، وصاحب التواليف المتعددة في العلاج النفسى والتحليلات النفسية وأشهرها كتاب « الأمراض العصبية في الشواذ » The Homosexual Neurosis وكتاب « حب الجنس المزدوج » Bisexual Love وهما موضوعان لنفى العلل البيولوجية الموروثة واثبات العلل النفسية والعصبية بالأمثلة المستمدة من تجاربه الشخصية

وقد سجلت الاحصاءات التى أشرفت عليها لجان العلماء المسئولين من خولوا درس هذه المسائل فى الجامعات والمدارس والمستشفيات والحقول والمعاهد المزدحمة بأفراد الجنسين أو أفراد الجنس الواحد ، فدلّت هذه الاحصاءات على أن نسبة الشواذ مدى الحياة لا تزيد على أربعة فى المائة، وأن الحالات التى تعرض بعض الناس للشذوذ الجنى قد تعرض أمثالهم للاتصال بالحيوان ، وأن الوسائل المصطنعة فى العواصم تشجع الشذوذ ومنها البؤر والمبائن التى يديرها طلاب الكسب ويتردد عليها طلاب الاستطلاع ممن تستهويهم تجربة اللهو حيثما اطلعوا منه على لون غريب . ولا نظير لهذه البؤر والمبائن فى القرى الصغيرة فهى لذلك قليلة الشواذ بين أبنائها وبناتها بالنسبة الى العواصم الكبرى (١)

ويتخرج معظم العلماء فى تقرير القواعد والادوصاف التى يسوقونها مساق الجزم واليقين فى هذه الأمور فلم يسلم من الملامة أمثال جريجوريو مارانون الاسبانى Gregorio Maranon لأنه سرد فى بحثه العلمى عن تطور الجنس Evolution of Sex أشباها وملامح زعم أنها تلازم الشواذ وتميزهم من غيرهم ، وربما شملت هذه الملامة أناسا من أجل الاساتذة الموقرين بين تلاميذهم ومريديهم من طبقة هرشفيلد وستيناخ المتقدم ذكرهما ، أو طبقة العلامة الفرنسى أندريه تريدون André Tridon صاحب كتاب التحليل النفسانى والأخلاق لأنه زاد عليهم فعمم الحكم على طائفة كاملة لا تجمع بينها ملامح خاصة بل يجمعها اليتم أو فراق الابوين

(١) السلوك الجنى عند ذكور الانسان تأليف الدكتور كسى وزملائه Sexual Behaviour in the Human Male, by Kinsey and Others.

فمثل هذه التعميمات ، في الحق ، تهجم لاسمى له من العلم ولا من أدبه ، ولسنا نقصد بهذا أن الشواذ مجردون من الملامح والخصائص التي قد تدل عليهم ، ولكننا نقصد أنها قد توجد فيهم وفي غيرهم ، وقد تميز الشواذ حين تقترب بدلالات كثيرة تلصق بهم مجتمعة ولا تميزهم متفرقة وسنضرب المثل على ذلك بهذه المياسم المتعددة حين تجتمع في شخصية « أبى نواس » ..

وينبغي أن تثوب الى قسطاس مفهوم لا يعتسف التفرقة بين العلامة الجسدية وهي عرض من أعراض الشذوذ الجنسى وبين هذه العلامة بعينها وهي لا تدل على مرض من أمراض النفس ولا تعدى موضعها من البنية ..

فالنفسانيون متفقون على أن العاهات النفسية إنما هي توقف في النمو أو احتباس له يعوق المصاب أن يستوفى نمو العاطفة أو الفكر أو الحاسة الاجتماعية أو وظائف البنية ، وتقترب بهذه العاهات أحيانا علامة محسوسة أو عادة جسدية نائية . إلا أن هذه العلامات قد تكون موضعية فلا تدل على نقص مستمر ، كعثرات النطق مثلا ، فإنها قد تدل على احتباس القوى الناطقة عند دور الطفولة فيظل الرجل طفلا تلازمه عيوب النطق الناقص الى سن الشيخوخة ، وقد تطرا بعد تمام النمو فيلثغ الرجل في الخمسين أو الستين اذا سقطت ثنياه ، ويتمم أو يرت لسائه اذا اصطدم واختل جهازه الصوتى دون مساس بعاطفته وشعوره

كذلك الطفل اليتيم أو الطفل الذى افترق أبواه وتربى مهملًا أو مدللاً في حضنة أم جاهلة لاهية ، فهو عرضة للشذوذ الجنسى اذا كان ضعيف المزاج في بيئة مغرية ، شبيها بالنساء في سماته وملامحه ، ولكنه قد يندفع الى السطو والاجرام اذا كان قوى المزاج متغلبا على أقرانه ، وقد يسلم من الشذوذ والاجرام معا وهو ضعيف المزاج مشابه للنساء اذا نشأ في بيئة بعيدة عن مغريات الرذيلة والجريمة ، أو كانت الرذيلة والجريمة في بيئته مما ينفر الطفل ويشير سخطه واشمئزازه ..

فالعلامات الجسدية وحدها لا تكفى لتسييز الشواذ والدلالة على عاهات الأخلاق والطباع ، ولا بد معها من قرائن عدة تتناول البيئة في نطاقها المحدود وفي نطاق المجتمع الكبير ، وتأتى دلالتها حتمية قاطعة متى بُت المرض وتجمعت أعراضه الأخرى .. أما قبل ذلك فهي دلالة ناقصة تسقط من كل تقدير صحيح

وسنرى عند تطبيق هذه العلامات على ابي نواس نماذج من الاعراض التى لا تدل على شىء حين تنفرد ولا تنقض دلالتها حين تجتمع .. فان أعراض البنية والتربية البيئية ونشأة المجتمع وأحداث العصر قد اجتمعت فى حالته الخاصة دون سائر الحالات التى وجد فيها شعراء عصره ، فجعلته تلك « الشخصية النموذجية » التى تكاد لا تتكرر فى جيل

شخصية منعرفة

شخصية أبي نواس

والآن نستطيع أن تثبت من سيرة « الحسن بن هانئ » صاحب الشخصية النموذجية التي وجدت حقا ولم يخلقها الوهم من تصورات السامعين به على حسب اختلاف الأوقات والأحوال وهذه الشخصية النموذجية غير شخصية « أبي نواس » .. هي شخصية « نرجسية » باصطلاح النفسين المحدثين على أن تفهم « النرجسية » فهما يخالف تعليلات « فرويد » وتعميماته .. وهي تلك التعليلات والتعميمات التي لا يقرها أحد من نظرائه وأنداده ، ومنهم أناس ضارعوه في المنزلة العلمية والشهرة العالمية بعد أن تلمذوا عليه فليست النرجسية طورا طبيعيا من أطوار العمر يمر به كل إنسان ولكنها آفة نفسية تولد مع صاحبها في رأى بعض النفسين وتنشأ من التربية البيتية وعوارض المعيشة الاجتماعية في رأى آخرين .. فمن الذين أنكروا تعليل فرويد لهذه الآفة العالم الفرنسى الدكتور رولان دالبيج Dalbierg الذى عقب على مذهب فرويد بمجلدين ضخمين خلاصتهما أن فرويد لا يفرق بين منهج العلاج وفلسفة علم « النفاسيات » وقد تناول دراسة النرجسية خاصة فقال في لهجة حاسمة : « ولكن هل لدينا ما يسوغ الذهاب الى أبعد من هذا المدى لنقول كما قال فرويد إن النرجسية درجة طبيعية في التطور الجنسى ؟ اتنا لا نتردد في الإجابة عن هذا السؤال بالنفى ، فليس التطور الجنسى سلسلة متتابعة من الشذوذات وليس النمو الجسدى كذلك سلسلة متتابعة من المسوخات .. » (١)

(١) الجزء الثانى من كتاب دالبيج

ومن معارضيه هرشفيلد المؤلف الموسوعي في النفاسيات الجنسية ، وهو يتناول الترجسية في الفصل السادس من الجزء الأول من كتابه عن النفاسيات الجنسية وهو كذلك ينكر أن الترجسية درجة طبيعية في التطور الجنسي ويردها الى فعل الغدد واختلاف تركيب البنية

ومنهم الدكتور لوينفلد Lowenfeld: مؤلف كتاب « الجنسيات والأمراض العصبية » وعنده أن الترجسية ليست طورا طبيعيا أو درجة طبيعية ولكنها انحراف يميل الى الشذوذ الجنسي ويجرى أحيانا في مجرى واحد مع غرام الترجسى بأبناء جنسه

ومنهم الدكتور سادجر Sadger تلميذ فرويد الذي يخالف أستاذه ويوافق الدكتور لوينفلد في رأيه وتفسيره (١)

ومنهم امام مدرسة مستقلة عن المدارس الاوربية وهو الدكتور وليام مكندوجال ورأيه في كتابه « اجمال العلل النفسية » أن غرام الطفل بنفسه حالة غير حالة الترجسية (٢)

ومنهم سيدة طبية (٣) تطبق العلل النفسية على الخصوص من الوجهة الأنثوية وهي الدكتورة كارين هورنى Horney التي تقرر في كتابها عن الأساليب الحديثة في التحليل النفسى أن فرويد لم يفرق بين تعظيم النفس وتمديدتها Self-Inflation وبين الترجسية بمعنى عشق النفس والتدله بها من الناحية الجنسية

فالترجسية التي تتبع أعراضها في الحسن بن هانىء ليست حالة طبيعية تلاحظ على انداده وفي مثل عمره . ولكنها حالة منحرفة ولد ببعض أعراضها وجاءته الأعراض الأخرى من البيت والمجتمع والعصر الذى نشأ فيه وعاش فيه سائر حياته ، وهي حالة لا يشابهه فيها أحد من شعراء عصره ولم يخطيء معاشره الذين أفردوه بها وأحسوا أنه هو دون غيره

(١) تراجع الجلد الثانى من مجموعة الدكتور هافلوك اليس باب الترجسية وفيه الامام بهذه الآراء

(٢) Outline of Abnormal Psychology

(٣) New Ways in Psycho-analysis

تلك « الشخصية » النموذجية التي طبعت بطابع واحد لم يتعدد في زمانه ولعله لم يتعدد على هذا النمط بعد زمانه

ولقد توافقت الدلالات والاعراض على تمييز هذه الشخصية النموذجية فاجتمعت فيها دلالات التكوين ودلالات النشأة البيئية ودلالات المجتمع ودلالات العصر بخدافيه حيث عاش بين البصرة والكوفة وبغداد أو حيث عاش فترة من عمره في الديار المصرية

وعلينا أن نقيم الفاصل الواضح بين هذه الدلالات في سيرة الحسن بن هانيء وبين هذه الدلالات بعينها حين تؤخذ متفرقة وحين تنفرد كل منها بالاستدلال على « شخصية مجهولة »

فالآفة هنا ثابتة والدلالات انما تأتي بعد ذلك لتطبيقها واستخراج أسبابها ومراجعة هذه الاسباب على النشأة والبيئة

فليست الدلالات هنا هي التي تهم الحسن بن هانيء وتقيم البيئة على اتصافه بأفته النفسية ، ولكنها قرائن تنتظر التطبيق والمضاهاة بينها وبين الآفة الموجودة ، فلا حرج من الاستدلال بها وهي متفرقة أو من الاستدلال بها وهي مجتمعة

أما الاعتماد على أشباه هذه الدلالات لاثبات آفة غير ثابتة فهذا هو موضع الحرج والاثانة ، فان كلا منها قد يؤخذ على حدة فلا يدل على شيء وقد تجتمع معا فيبقى الشك في حقيقة الارتباط بينها ومقدار التوافق في جوانب هذا الارتباط وتلاقيها حقا على وجهة واحدة

لهذا يجوز أن يعتمد الباحث على بعض الاعراض في دلالتها على هذه الشخصية ولا يجوز أن يعتمد عليها في سائر الشخصيات ، ومرجع ذلك الى ثبوتها مجتمعة ومتفرقة ثبوتا لا خلاف عليه

وتبدأ بدلالات التكوين الجسدى كما جاءت في أوصاف لم يخالفها أحد من مترجميه ..

التكوين الجسدي

قال ابن منظور في أخبار أبي نواس : « كان حسن الوجه رقيق اللون أبيض حلو الشمائل ناعم الجسم ، وكان في رأسه سماحة وتسفيط أى كان شعره منسدلا على وجهه وقفاه - وكان ألغ بالراء يجعلها غينا ، وكان نحيفا وفي حلقه بحة لا تفارقه »

وقال من سيرته مع والبة بن الحباب « فرأى بدنا حسنا ، وكان جميل الوجه وحسن البدن ، فأطار عقله »

وقال في سبب تسميته بأبي نواس : « سئل مرة أخرى فقال : سبب كنيته أن رجلا من جيراني بالبصرة دعا اخوانا له فأبطأ عليه واحد منهم فخرج من بابه يطلب من يبعثه اليه ليستحثه على المجيء اليه فوجدني مع صبيان ألعب معهم وكانت لى ذؤابة^(١) في وسط رأسي فصاح بي : يا حسن امض الى فلان وجئني به ، فمضيت أعدو لأدعو الرجل وذؤابتي تتحرك فلما جئت بالرجل قال أحسنت يا أبا نواس ، لتتحرك ذؤابتي ، فلازمتني هذه الكنية^(٢) »

وكان يعتز بفراهة بدنه . قال أبو القشير : « نظمت الشعر وأنا غلام وأبو نواس غلام وكنا جميعا نضرب العود وكنت أحسن وجهها من أبي نواس وأبو نواس أطبع منى فتفاخرنا بالشعر وغيره ، ثم قلت له : انى أجمل منك وجهها ، فقال بل أنا أحسن منك وجهها وأفره .. »

وكان لا ينسى ملاحظته وتيهه بها وقد جاوز الشباب كما قال من شعره :
تتبه علينا أن رزقت ملاحظة فمهلا علينا بعض تيهك يا بدر
فقد طالما كنا ملاحا وربما صددنا وتهنا ثم غيرنا الدهر

وتكاد تتمثل لنا من هذه الملامح صورة نرجسية للحسن والعيان قبل النرجسية النفسية التى يدور عليها بحث علماء الامراض النفسية ، فالبياض والركة والنعومة والملاحة والشعر المتهدل أشبه ما تكون بلامح الفتى

(١) ذؤابة : ضفيرة الشعر المرسله . (٢) فراهة : الملاحة في الناس ، والنشاط والخفة في الدواب .

نرجس الذى حنا على الجدول فاستحال نرجسة واتخذة الاسطوريون اليونان نموذجا للجمال المفتون بمحاسنه ودلالات التكوين الاخرى تتم هذه الملامح فيما تسمعه الأذن ولا تراه العين ، فاللثغة وبحة الصوت تشيران الى تكوين وسط بين كيان الصبي وكيان الشباب الناضج . وليس هذا الاحتباس في جهاز الصوت موضعيا لا يرتبط بحالة كامنة في وظائف البنية لأنه غير مقصور على لثغة اللسان بل شامل للحنجرة كما يبدو من بحة الصوت التى لا تفارقه . ولعلمهم لو كانوا في زمانه يعرفون مراكز الدماغ التى تسيطر على النطق عامة لضافوا الى ذلك لوازم أخرى مع اللثغة والبحة الحنجرية . ولكن ما ذكره كاف للدلالة على أن النقص شامل لجهاز النطق كله وما يليه من الغدد التى تسيطر على اعداد البنية للمراهقة وليس بالمقصود على الحنجرة واللسان ولا يخفى أن جهاز النطق شديد العلاقة بالنمو الجنسى في الرجال على الخصوص فلا يدرك الرجل سن النضج حتى يغلظ صوته ويعمق ويبرأ لسانه من لكنة الطفولة ولثغات الحروف فاذا عم النقص لسانه وحنجرته كان لذلك علاقة بوظائفه الجنسية مدى الحياة

وتضاف الى لثغة أبى نواس وبخته ظاهرة لها علاقة بالنفسية الجنسية وبالكيان الجسدى المتصل بهذه النفسية

فالضفيرة التى كانت مرسله من رأسه تنبئ من الوجهة النفسية التى كان أهله يشعرون بها ولا ريب عن صبي شبيه بالبنات ترسل له الضفائر تدليلا ومجازاة لسيماه الغالبة عليه وهذا التدليل من علامات النرجسية التى يرجع فيها الى أثر البيت والتربية

ويظهر أن أبا نواس قد أراد الاحتفاظ بهذه الضفيرة بعد بلوغه سن الرجولة معتزا بغزارة شعره ، فأشفق من السخرية والعبث ولم يسترح الى نبذها مرة واحدة فاستماض عنها بتسفيط شعره وبقائه منسدلا على جبهته وقذاله^(١) وهذا ، الى نعومة الجسم وخلوه من الشعر ، علامة جنسية لا تهمل مع اضافتها الى غيرها من العلامات المتوافقة

(١) قذاله : القذال بالفتح ما بين نقرة القفا الى الاذن .

فالمعهد في شعر الرأس أنه من العلامات الجنسية الثانوية وأنه على صلة بهرمونات الذكور والاناث على السواء ويتعرض الرجل للصلع بعد سن الشباب على الأغلب ، فقلما يصلح الشبان في ابان القوة الجنسية

ولو وقف الأمر عند هذا لما احتاج الى بحث طويل ، فيكفى أن يقال إن غزارة شعر الرأس مرتبطة بالقوة الجنسية ، ثم يتساقط الشعر مع تقدم السن وتناقص هذه القوة

ولكن المشاهد أيضا أن النساء قليلات الصلع وأنه قلما يصيب الخصيان المجبوين قبل البلوغ

فماذا يكون تعليل الصلع مع النظر الى جميع هذه الملاحظات ؟ هل يأتي من ضعف هرمونات الذكورة ؟ ان كانت هذه هي العلة فالأولى أن يصاب به النساء والخصيان

فهل يأتي من قوة تلك الهرمونات ؟ على هذا التقدير ينبغي أن يصلح الشبان ولا يصلح الشيوخ

والتعليل المعقول اذن أنه يأتي من تحول طبيعة هرمونات الذكورة فاذا كانت في نشأتها قوية غالبية ثم شاخت مع شيخوخة البنية حدث الصلع وان لم تكن من نشأتها قوية غالبية لم يتحول الشعر عن حالته .. واذا بقيت على قوتها بقي شعر الرأس كأنه في سن الشباب

فأبو نواس اذن بقي على حالة واحدة من صباه الى شيخوخته ، فحكمه في هذه الحالة حكم النساء والخصيان

واذا أضيف الى هذا خلو جسمه من الشعر واحتباس جهازه الصوتي عند الحالة التي تتوسط بين الصبا والشباب كانت هذه العلامة أيضا خليقة أن يلتفت اليها ولا تهمل في سياق الفحص عن الجنسيات والنفسيات ولا حاجة الى الاسهاب في الكلام عن شعوره بمحاسن بدنه شعورا فرجسيا كالعشق الذي يعنيه الاطباء النفسانيون فان مفاخرته لا يبي القشير

واعتزازه بفراغة بدنه وذكرى التيه الذى كان ينعم به فى صباه وأشباه ذلك من نواتره وقصائد مجونه — تغنى عن الاسهاب فى هذا الباب

البيت

وعنوان الترجسية التى اندست اليه من تربية البيت هى تلك الضفيرة التى ظلت مرسله من رأسه الى السن التى يلعب فيها مع الصبيان ، سواء كانت هى سبب تسميته بأبى نواس أو كان لهذه التسمية سبب غيرها فهو طفل مدلل فى كفالة أمه ، وربما دللته لانه وحيدها كما قال فى شبابه :

لا تفجئى أمى بواحدنا لن تخلفى مثلى على أمى
فقد عاشت حتى شاخت وقالت فيها الجارية « عنان » تهجوه وتهجوها :
عليك أمك (خذها) فانها كندية

والكندية بالفارسية هى العجوز الخرفة ولا يمنع أنه واحدنا ماجاء فى ترجمته من سيرة أخيه وأخته فربما كانا أخويه لأبيه : اذ كانت أمه قد تطلقت من أبيه وهو غلام صغير ولبت بعد ذلك فى كفالة أمه ، ولا يبعد أن يكون أبوه قد تزوج قبلها أو بعدها ومن أسباب التدليل التى أحصاها أطباء الامراض النفسية أن تشتهى الام أن ترزق بنتا لغربتها أو وحدتها واقترباها من الشيخوخة التى تحتاج فيها الى عناية المرأة ، فترزق ولدا ذكرا بدلا من البنت التى تتمناها ، ويحدث فى هذه الحالة أنها تربي الولد تربية البنات تسلية لها ومغالطة لأمنيتها ، وليست هذه الأمنية بعيدة من خاطر أمه لأنها كانت امرأة من قرى الاهواز تزوج بها هانىء وهو فى جيش الامويين ثم نقلها الى البصرة بعد قيام الدولة العباسية . فجاءتها وحيدة منقطعة عن أهلها ، وجعلت تعيش فى موطنها الجديد بارضاع الاطفال وصنع الجوارب وبيع الملابس لفساء البيوت ..

يقول أندريه تريبون Ir:don فى كتابه « التحليل النفسى والاخلاق » :
« ان المحللين النفسيين متفقون جميعا على تكوين الشذوذ الجنسى

في صورته المنفعلة . فان الصبي الشاذ المنفعل هو في جميع الحالات ابن أيم أو زوجة مطلقة فارقت زوجها بالموت أو الهجر والمقاضاة عقب ولادة الطفل فنما الطفل مضطرا الى التماس قدوة يقتدى بها فوجد هذه القدوة في أمه وكبر وهو يحاكيها في الاعراض عن النساء والمبالاة بالرجال ، وأصبح كالمرأة في كل اعتبار غير اعتبار التشريح ، ثم يدرك الرغبة الجنسية على النحو الذي تدركه المرأة فيتمنى مثلها أن يحرز رجل كما يحرز النساء ..

ويجاري النفسين في مثل هذا الرأي أستاذ لعلم الامراض النفسية قليل الشطط في آرائه ، وهو الدكتور جوردون آلپورت Allport أستاذ هذا العلم بجامعة هارفارد ، فيقول في كتابه عن الشخصية والترجمة النفسية (١) « ان الولد النحيل الذي يعاني جرحا نرجسيا يجد ملاذلا له في أن يصبح عشيرا مدلا PeP لأستاذه »

وقصة أبي نواس مع أستاذه والبة بن الحباب هي تطبيق لهذه الملاحظات من الغلاة والمعتدلين من العلماء النفسين

ولم يكن التدليل هو كل ما ابتلى به أبو نواس في صباه من مغامز الآفات الجنسية ، فقد قيل إن أمه كانت تستخدم صناعاتها في الاتجار بملابس النساء للجمع بين الفواني وطلابهن في بيتها « وكان لها بيت تنادي فيه الفواني » ولصقت به هذه السمعة الى ما بعد شبابه ، فقال فيه الشاعر ابان بن عبد الحميد اللاحقي :

أبو نواس بن هاني وأمه جليبان
والناس أفطن شيء الى دقيق المعاني
وكانت الجارية عنان تغرى به السفهاء والعيارين أن يصيخروا به كلما
رأوه :

أبو نواس اليماني وأمه جليبان
والنفل أفطن شيء الى حروف المعاني

(١) Personality and Psychological Interpretation, by G. Allport.

(٢) العيارين : العيار : الكثير التطواف والحركة من الرجال .

(٣) النفل : ولد الزانية .

وتريد بالنخل أبا نواس ، وتشير الى امرأة كانت كما قيل تربي أولاد
الزنا وتربيهن ، وهى أمه جليان ا «
أما أبوه « هانيء » فالأرجح أنه من سلالة زنجية تنتمى الى مولى من
اليمن وكان أسود شديد السواد قال فيه ابان :
هانيء الجون أبوه زاده الله هــوانا

وكان أبو نواس يتعصب لليمانية أحيانا ، ويهجو من أجلهم النزارية
كثيرا ، ولكن أصدق الأقوال في نسبه ما قاله فيه الرقاشى أنه :
واضع نسبه حيث انتهى فاذا ما رآه ريب رحل

فقد إدعى زمنا أنه من ولد عبيد الله بن زياد بن ظبيان من بنى عامر
من تيم اللات الذى ينتهى نسبه الى وائل .. فقليل له : ان الرجل الذى
تدعى اليه لا عقب له ، لأنه فلج ومات ولا ولد له . فترك الانتساب اليه
وذهب يتنقل بين الانساب اليمانية حيث شاء ، ولم يلبث أن هجا اليمانية
فقال :

لأزد عمان بالمهلب نزوة اذا افتخر الأقوام ثم تلين
وبكر ترى أن النبوة أنزلت على مسمع^(١) فى الرحم وهو جنين
وقالت تميم لا ترى ان واحدا كآخفنا حتى الممات يكون
وفى غير هذا الكلام يهجو نزارا فيقول :

واهج نزارا وافر جلدها واهتك الستر عن مثالبها
وفى هذه القصيدة يقول مفتخرا بقحطان :

فافخر بقطنخان غير مكتتب فحاتم الجود من مناقبها
ولا ترى فارسا كفارسها ان زلت الهام عن مناقبها
عمرو وقيس والاشتران وز يد الخيل أسد لدى ملاعبها
وربما تعاجم وتنكر للعرب جميعا كما قال :

تراث أبى ساسان كسرى ولم تكن مواريث ما أبقت تميم ولا بكر
وربما فضل منادمة المعجم على منادمة العرب حيث يقول :

(١) مسمع أبو قبيلة في ربيعة

تأدبهم ارتاض في آدابهم فالفرس عدوى سكرهم محسوم
ولفارس الاحرار أنفس أنفس وفخارهم في عترة^(١) معدوم
ويستكثر في قصيدة أخرى منادمة الشراب على الأمم جميعا غير العرب
فيقول :

لا تمكثنى من العرييد يشربنى ولا اللثيم الذى ان شمنى قطبا
ولا المجوس فان النار ربهم ولا اليهود ولا من يعبد الصلبا
ولا السفال الذى لا يستفيق ولا غر الشباب ولا من يجهل الادبا
ولا الأراذل الا من يوقسرنى من السقا ، ولكن أسقنى العريا

وهكذا راح أبو نواس يفخر اليوم بما ازدراه أمس ويمدح لهذه
المناسبة أو تلك مآذمه لمناسبة أخرى ، ويلهج بهذه المفاخرات والمهاخرات
في مطالع القصائد لينعى على العرب طلولهم وبواديههم ويؤثر عليها التغنى
بالمدامة والمنادمة ، أو يلهج بها في المدائح ليقدح في كل نسب غير نسب
الممدوح ، أو في الاهاجى ليعيب من يقصده بالهجاء ، وكانت هذه النغمة
هجيرا لا يكاد يسكت عنها في باب من أبواب المعصية

ومن اللغو أن تؤخذ هذه المفاخرات مأخذ الدعاوى الجدية التى يحققها
مدعيها ويعول على تحقيقها ، فان المرء لا يلهج هذا اللهج بشيء الا أن
يكون له مساس بهوى دفين يفره باللغظ فيه على غير مشيئته ، والمساس
بالهوى الدفين هو الذى يسميه العصريون بالعقدة النفسية ، وها هنا
عقدة نفسية على متناول اليد لاتعنت السائل عنها من قريب ولا تلجته
الى سر غير مكشوف

فليس في نفس الترجسى عقد آلم لها من تلك التى تمسها في قفتها
بذاتها وتمسها من ثم في شهوة العرض والمعارضة ، ونزوة التحدى
والاستثارة ..

ومشكلة النسب تمس أبا نواس في هذه وتلك أى أنها تمس قفته
بذاته ، وشهوة العرض والمعارضة في دخيلة طبعه
فليس أثقل على الفتى المغمور النسب في أبويه معا من المفاخرات التى

(١) عترة : سلالة .

تتعالى بها الاصوات من حوله ولا يسمع له بينها صوت
وقد كان العصر عصر المفاخرة بين الشعوبيين والعرب أجمعين وكاف
عصر المفاخرة بين القحطانيين والمدائنين وكان عصر المناجزة والمعاجزة
بين العلويين والعباسيين ، ولم يكن أبو نواس قصير اللسان منزويا عن
الناس فيسكت وينزوى ، ولم يكن صغيرا عند نفسه فيعترف عليها بالصغر
والمهانة ..

ونخالها العقدة الوحيدة التي شقيت بها نفس أبي نواس ، لأن العقدة
النفسية لا تعيش في دخائل الاباحيين ، اذ كانت العقدة بطبيعتها كبتا
وكتمانا وكانت الاباحية مجاهرة بما يكبته الناس ويكتُمونه ، ولكن مشكلة
السب شيء لا يباح به ولا يكشف الا على المقاتلة والتحدى ، وهذا
ما فعله أبو نواس ..

ولاشك أن هذه العقدة كانت من أقوى بواعث أبي نواس على مطاقرة
الخمر وألفة مجالسها ، واختيار المجالس التي لا تسمع فيها المفاخرة
بالأنساب أو تسمع فيها ولكنها تعاب على سنة الظرفاء والأحباب

راح الشقي على الربوع بهيم
والراح في راحي ، فرحت أهيم
بمزممين عدوا بسدفة ليلة^(١)
والليل ملتبس الظلام بهيم^(٢)
فادمتهم أرتاض في آدابهم
فالفرس عدوى سكرهم محسوم
ولفارس الاحرار أنفاس أنفاس
وفخارهم في عثرة معدوم
واذا أنادم عصبة عرية
بدرت الى ذكر الفخار تميم
وعدت الى قيس وعدت قوسها ..
سبيت تميم وجمعهم مهزوم

(١) بمزممين : زمزم الرعد : صلات ولم يعل صوته * (٢) سدفة :
ظلمة * (٣) بهيم : أسود

وبنو الأعاجم لا أحاذر منهم
 شرا فننطق شربهم مذموم
 لا ييذخون على النديم اذا اتشوا
 ولهم اذا العرب اعتدت تسليم
 وجميعهم لى حين أقعد بينهم
 بتذلل وتهيب موسوم

نعم وهذه هي العقدة . فهو يختار المنادمة حيث لا مضايقة بالمفاخر
 والسعوى وحيث يرى من حوله التوقير والتسليم . ولكنه لا يسكت
 سكوت الواجم الذليل في غير هذا المجال بل يصول صولته هاجيا أو
 مباهايا ليتحدى ويستثير

ولاشك أن ولاء لقوم من اليمانية غير مكذوب من أساسه ولكنه
 ولاء العبد الذى تدرج من الفخر بصادته الى ادعاء ولائهم ثم ادعاء
 نسبهم . وليس من المصادقات أن يكون اسم أبيه هائثا كاسم بطل اليمن
 المشهور في حرب ذي قار « هانيء بن مسعود بن بكر » وقائد قومه في
 النصر على جيش الأكاسرة . وليس من المصادقات أن يسمى أخوه أبا
 معاذ على اسم معاذ بن جبل الخزرجى الذى كان من اليمن وكان رسول
 النبى عليه السلام الى اليمن وقاضيا المختار لهدايتها وارشادها ، وكذلك
 جاءت نسبة أبى نواس الى الذوين^(١) من اليمانيين . بل كذلك اختار
 أبو نواس جميع أساتذته أو أكثرهم من اليمانية وأصحاب الولاء فيهم .
 منهم يعقوب الحضرمي وخلف الأحمر وأبو زيد الانصارى وغيرهم من
 المنتسبين الى اليمن بالنسب أو بالولاء

فليس هذا مما يتفق بالمصادفة ولكن صاحبنا علم أصل ولائه ونسب
 وترعرع وهو يستمع الى الأسماء اليمانية في بيته فأراد أن يفرس عقيدته
 في الانتساب الى اليمانية بالايحاء الى نفسه والتماس القربى لكل لاهج
 مثله بهذه النسبة ومكنها بهجو النزارية عسى أن يقبله القحطانيون فيتمكن
 بينهم بالاغضاء والسكوت ان لم يتمكن بينهم بلحمة الاباء والأجداد

(١) الذوين : جمع (ذو) التي تسبق بعض الاسماء .

وأصل هذه الدعوى كلها على ماهو ظاهر أن هائثا أباه كان من زنج اليمن أقرب بلاد العرب الى جلب الزنج من طريق البحر الأحمر ، ولم يختلط قومه طويلا بغير الزنج . فلم يفارق أباه سواد لونه وتزوجت أخته من عبد يسمى فرجا القصار وولد الشاعر أبيض بلون أمه ، فاختار من النسب أقربه اليه ، ولم يختره الا وهو مستعد للانكار وتشديد النكير على من ينكر دعواه ، وبخاصة حين يجد من طبعه نزوعا الى تشديد النكير للتحدى والاثارة

والحسن الصغير — على هذا — قد أخذ من بيته الترجسية مولودا وأخذها وهو يتربى مدلا مهملًا محروما من الرعاية الرشيدة ، وأخذها من مشاهداته فيه وهو يخطو الى الفهم ويظن أنه يتعقل ما يراه فلبس أعون على الاباحية الترجسية من مشاهدة الرياء حاسرا بغير قناع في حظائر الأسرار بين جدران البيت .. وخلق بمن طبع على العبث بالعرف الا يكثر له وهو يرى المساتير من الرجال والنساء أمام الناس بادين على حقيقتهم في خلوات الفجور والمجون !

بيئة المجتمع

وتطبق البلية من بيئة المجتمع حيث فتح الحسن عينيه على الدنيا المريضة من مدينة البصرة فرضة العالم كله في ذلك الزمان فالبصرة في موقعها مثابة الطلاب والقصاص من كل بلد وكل نحلة وفيها محاسن الحضارة ومساوئها مبذولة لمن يشاء كيف شاء . وكل مصيب فيها بغية من العلم والأدب أو من الكسب والتجارة ، أو من اللهو والغواية أو من الثورة على الدولة والولاء لها في ذلك الزمن المريج^(٢) المتقلب بين شتى الدعوات والغارات

وكان من حولها قطاع الطريق يتربصون بالقوافل برا وبحرا وينهبون من استطاعوا نهبه ثم ينفقون السلب على الخمر والقمار والدعارة في الحاضرة الكبيرة ، ولا يزالون بين اجترأ واختفاء كلما أنسوا غمرة

(١) فرضة : محط السفن من البحر . (٢) مريج : المختلط المتببس

من الدولة وشاغلا من حفاظ الأمن أو أحسوا لها شدة ويقظة في تعقب الشطار^(١) والخراب ..

وكان عصر أبي نواس أول عهد البصرة بالبوهيمية المتشردة المتهجمة كما عرفتھا مدن الحضارة حيث شاعت وفشت في أدوار القلاقل والمنازعات ففى ذلك العصر أخذ « البوهيميون » يفدون من مواطنهم الاسيوية الهندية ويزحفون الى الغرب جموعا أو متفرقين ، بل جيوشا أو عصابات على حسب المكان الذى يغيرون عليه

هؤلاء هم الزط أو النور أو البوهيميون بعاداتهم وأساليبهم التى تجمع بين غارات الفتك والعدوان وغارات الغواية والمتاع المبذول ، حيث يستطيع الفتك أو يروج المتاع ..

والزط هم البوهيميون بعينهم ، والكلمة مصحفة من كلمة أوربية قديمة أطلقت عليهم لأن الأوربيين حسبوهم قادمين من الديار المصرية ، فسموهم تارة « جيتو » وتارة « جيسى » Gipsy من كلمة جيسيانو أو اجيسيانو التى يطلقونها على المصريين ، الى أن قامت طائفة منهم فى أواسط أوربا فغلب عليهم اسم البلد الذى أقاموا فيه واشتهروا من ثم بالبوهيمين ..

والبوهيمية بعاداتها وأساليبها معروفة لم تتغير منذ تسربت الى بلاد الحضارة ، وأولها التشرذ وقلة المبالاة بالعرف الاجتماعى ، وطلب الكسب اختطافا أو اختلاسا أو متاجرة باللذات والشهوات حيثما اتفقت . وهذه عنى الأقل هى البوهيمية كما اصطلح عليها العرف الشائع بين أبناء الحضارة وصفا لما عهدوه من عادات « الزط » المترحلين

وكان هؤلاء الزط ينزلون حيث نزلوا الى جوار الحواضر ومعهم قتياتهم يردن لهم البيوت والديار وقد يكشفن لهم ثغرات المدن للاغارة عليها كلما أمكنتهم الفرصة أو العوز

قال ابن خلدون : « هم قوم من أخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة وعاشوا فيها » ..

(١) الشطار : جمع شاطر وهو من أعيان أهله نجيبا .

وتفانم خطبهم أيام الخليفة المعتصم فاجترءوا على مهاجمة المدن ونهب
بيادرها وحمل أرزاقها ، ولم يأمن شرهم حتى جرد لهم قائده عجيفا
وحصرهم بقطع الأنهار وسد مسالك الطرق ثم أسر منهم أكثر من عشرة
آلاف مقاتل نقلهم الى عين زربة فأخذهم الروم بنسائهم وذرائعهم في غارة
من غاراتهم على تخوم آسيا الصغرى

أما في جيل أبي نواس فلم يكن قد وفد منهم على جيرة البصرة غير
طلّاح متفرقة ، يقطع بعضهم الطريق في البادية وينزل بعضهم الى جوار
الارياض^(١) المتفرقة ، ويجرون على عاداتهم التي تلخصها كما أسلفنا كلمتان :
التشرد والتحلل من عرف المجتمع وآداب الحضارة

وكانت الفئة التي اشتهرت باسم « الشطار » بعض طلائع هؤلاء
الأخلاق وهم المثل المقتدى به عند أبي نواس كما جاء في مجونه وخمرياتة،
ومنها فيمن يقول إنها لامته على صحبتهم جاهلا شرورهم :

وملحة باللوم تحسب أننى بالجهل أوثر صحبة الشطار
ومن كلامه في منادمة الفتاك :

خندريس^(٢) عطر النكمة كالمسك السحيق
انما طابت لذى فتك تردى بنفسه فوق
جاهر الناس بما يأت فيه فى ضنك وضيق
وبدا فى الناس مشهو را كذى الرأس الحليق

أى كالفاتك الذى يأخذه أولياء الأمر ويخلقون شعره ويطوفون به
للتشهير ، وفى كل هذا مواضع تأمل لما يتحدث به الوعى الباطن من
سريرة أبى نواس أو يحن اليه مزاج الاباحية والغرام بالخروج على
العرف المألوف ..

ومن أمانيه فى هذا المقصد أن يقطع الطريق ان لم يرتفع الى منادمة
الخلفاء ..

سأبغى الغنى اما جليس خليفة يقوم سواء ، أو مخيف سبيل

(١) الارياض : جمع ربحى وهو ما حول المدينة من بيوت ومساكن .

(٢) خندريس : الخمر القديمة .

بكل فتى لا يستطار جناحه إذا نوه الزحفان باسم قتييل
 لنخس مال الله من كل فاجر أخى بطنة للطيات أكلول
 ولما خرج من بغداد ينوى الرحلة الى مصر أحب أن يمثل الشطارة بزيه
 وثيابه اذ كان لا يقوى على تمثيلها بسيوفه وحرايه ، فخرج كما جاء في
 أخباره لابن منظور « بزي الشطار » ، مصفا شعره موسما كميح يجرر
 ذيله على حد قوله في مجونياته :
 « يجرر أذيال الفسوق ولا فخر »

ويروى في ترجمته أنه سأل أستاذه والبة بن الحجاب أن يخرجني
 البادية مع وفد بني أسد ليتعلم العربية والغريب ، فأخرجه مع قوم
 منهم ، فأقام بالبادية سنة ثم قدم ، ففارق والبة ورجع الى بغداد
 ولم يرد في ترجمة أديب من بني عصره أنه ذهب الى صحراء بني أسد
 ليتعلم العربية والغريب فيها ، فالراجح أنها كانت جمعة من جمعاته في
 مصاحبة الشطار ثم أشفق من مغبتها وسكت عنها مخافة الطلب والقصاص

تقول الدكتورة كارين هورنى في مراقبتها النسوية للرجسين أنهم
 يتعلقون بالمشروعات ولا يشبتون عليها ، ويتنقلون من حرفة الى حرفة ومن
 مظهر الى مظهر ليطمئنوا الى تمثيل الشخصية التي يستريحون اليها

ويقول فليشر Flesher في كتابه عن الصحة العقلية والوقاية من الأمراض
 النفسية أو العصبية (١) . « ان اشتهاا القوة المشتق من غريزة العدوان
 وجب النفس النرجسى يشترك على التساوى في هذه الرغبة - رغبة
 التشبه بالكبار في كل مايفعلون .. وان اعجاب الطفل بقدره الكبار ينبغى
 أن يعزى الى تمديد الشخصية الغالبة في النرجسية ليخلعها على أحدهم ،
 وبخاصة خلال الطور الأول من أطوار الافتتان بالذات »

فاذا كانت الشطارة حلما من أحلام اليقظة تكبح مخاطرة الغلام
 التحيل الرقيق الذى لا قبل له بتلك المخاطر المستهولة ، ففي البيئة

الاجتماعية التي ترعرع بينها هذا الغلام ألوان مستطاعة مما يحلم به ويميل اليه طبعه ويرضى أهواء النرجسية في طويته . ويكاد أبو نواس يتشكل بكل شكل منها على التعاقب أو في وقت واحد ، متتبعا للمطالب المتنافرة التي لا يتأني له الجمع بينها ، ولا يجمع بينها عنده الا تجاربه للشخصيات الجذابة التي يقدر أنها تلفت اليه الأنظار وتوافق « الفتنة الذاتية » التي لا تستقر على قرار

فتعلم العزف على العود ودق الدفوف ليسلك مسلك المسمعين والقيان بين طلاب الملاهي والفنون ، وتعلم التنجيم وتعلم اللغة وتعلم الفقه والحديث وتعلم القراءة والتجويد ، ونظم الشعر وروى قصائد الفحول ، وتعلم العطاراة والتجارة ، وتعلم الأخبار والأنساب ، وتردد على معاهد الدرس ومعاهد الرقص والسكر والمجون وتداول هذه الأدوار كأنما يخلع لباس دور من أدوار التمثيل ليلبس غيره على المسرح ، ولكنه مسرح الحياة ..

وروى أبو هفان « أن أبا نواس لما تأدب ونشأ وظرف ورغب فيه فتيان البصرة للمصادقة قال : لا أصادق الا رجلا غريبا شاعرا يشرب الخُمور ، يصفها ويصف المجالس ، ويكون له سخاء وشجاعة . فذكروا له جماعة . فلم يحب ان يكون الرجل من أهل بلده ، فهرب الى الكوفة ، وذكر له بها رجل من بني أسد يقال له والبة بن الحباب ، يشرب الخمر ويقول الشعر ويجمع الخصال التي أرادها »

وهذا تلفيق ظاهر لا نخاله يروى قصة واقعية ، ولكنه اذا أريد به تمثيل « الشخصية النواسية » أصدق من التاريخ في تصور هذه الشخصية ولا يكون أبو نواس الا هكذا في اختياره للناس والتذرع للسفر والاقامة ..

وأيا كانت الشخصية التي يتلبس بها للعرض والظهور ، لقد كانت وراءها جميعا تلك « النرجسية الجنسية » التي تغريه أن يتشكل بجميع هذه الأشكال ويتطور بجميع هذه الأطوار ، وما نسيها ولا انسلخ منها

وهو يغشى معاهد الدرس والتقوى ، وكان كل أمرد يغشى معاهد الدرس
على هذا المثال في عرفه كما قال :

إذا ما وطىء الأمر	د للعلم حصا المسجد
فقل حل لنا عقدا	من العفة واستفد
فإن كان عروضيا	فقولوا سجد الهدد
وإن أعجبه النحو	فها ذاك له أجود
وإن مال إلى الفقه	فلفقه له أفسد
وإن كان كلاميا	فحرك طرف المقود
وميله إلى الخير	ففيه قرب ما يبعد
وخذه كيفما شئت	ت اقتضابا أو على موعد
وقل : هذا قضاء الله	هل يدفع أو يجحد ؟

واتمى مصرحا :

فيا من وطىء المسجد	من ذى بهجة أغيد ^(١)
أنا قست على نفسي	فهذا الأمر لا أجحد

وقد كان يستند إلى سارية في معهد من هذه المعاهد حين كتب إليه
ابن مناذر يمدحه بأبيات من الشعر فيما روى الرواة فأجابه يفهمه أنه
يتصدى للعباء وزينة الأزياء

ألذ عندي من مديحك لى سود النعال ولين القمص

ويخيل إلينا أنه لو نبت في بيئة اجتماعية تخالف بيئته تلك لما اتنى
غناؤه إلى غير المواطن التي تجذبه إليها آفته النفسية ، فانما هذه الآفات
كالشمرات في التربة المزروعة تمتص كل ثمرة من أرضها وهوائها وضياؤها
ما يلائم بذورها ويوائم طعمها وشكلها ولونها .. وإلى جانبها على مد
الباع ثمرة أخرى تمتص من التربة والجو طعما غير ذلك الطعم وشكلا
غير ذلك الشكل ولونا غير ذلك اللون ... وفي البذور سر ذلك التباعد على
القرب بين الشمرتين

أما وهو قد نبت بين إباحية الشطار وإباحية الشذاذ من جميع الآفاق

(١) أغيد : الاغيد من الأطباء اللين الاعطاف ، ومن النبات الناعم المنثني .

في مآلف الغواية والفساق ، فقد كانت المحنة أقوى من طاقة المقاومة عنده
لو أنه يقاوم ، وإنما كان على عكس ذلك ينطلق انطلاقه ليسبق النظراء
في حلبة الجراح والمجاعة

العصر السياسي

العصر الذي أحاط بحياة أبي نواس يتبدى من أوائل القرن الثاني
للهجرة الى نهايته ، وهو عصر سقطت فيه دولة بنى أمية وقامت فيه دولة
بنى العباس ، وأمثال هذا العصر في تواريخ الأمم يتسم بسمات الانقلاب
ويشيع فيها اليأس من جانب والمجازفة من جانب ، ويتبدل فيها الولاء
غير مرة بين النجم الآفل والنجم الطالع ، ولا تطول فيها الثقة بشيء حتى
تشوب الأمور الى قرار

كان فيها لسان حال الأمويين يتردد في صيحة ابن سيار :

أرى خلل الرماد وميض جمر	ويوشك أن يكون له ضرام
وما أدري ولست أخال أدري	أليقظ أمية أم نيام
ففرى عن رحالك ثم قولى	على الاسلام والعرب السلام

ومثلها أبيات عباس بن الوليد :

انى أعيدكم بالله من فتن	مثل الجبال تسامى ثم تندفع
ان البرية قد ملت سياستكم	فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا

ولم يكن بنو أمية خلوا من ذلك الملل الذى قال ابن الوليد أنه عم
البرية ، فان الأمويين انقسموا في بيت الملك منذ ابتدعوا عادة التوصية
لولاية العهد باثنين في وقت واحد ، يزاحمهما من بينهما من لم تشمله
الوصاية ، فلم ينقض عهد خليفة من خلفائهم دون مؤامرة من هنا ودسياسة
من هناك ، ونفاق يتراءى هنا وهناك

وهذه المؤامرات في بيت الملك تقابلها في الرعية شعب متفرقة بين الفرس
والعرب ، وبين القحطانيين والعدنانيين من العرب أنفسهم ، بل شعب

متفرقة بين كل معسكر من هذه المعسكرات ، فلا القطانيون ولا المدائنيون مجتمعون على هوى واحد ، ولا الخلاف حيث كان يرجع الى سبب واحد . فربما تمرد أناس من الفرس لثقل الضريبة ولا سبيل الى تخفيفها كلما افتقرت الدولة المتداعية الى المال للتدعيم والتقويم أو افتقرت اليه لاستشراء^(١) عادات الترف وانتشار الغضب والاختلاس بين العمال ، وربما تمرد أناس منهم لأنهم على حد قول القائل :

إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ نصيب ولا حق تمنى زوالها
فلا تسلم الدولة من عداء السوق الفقير الذي حرمة الدولة رزقه
وعداء السيد الغنى الذي حرمة الدولة ميراثه من الجاه والعتاد ؟
ووراء هؤلاء جميعا قوم لا يرضون عن أحد ولا يرضى أحد عنهم ،
وهم الخوارج الذين حكموا على هذه الطوائف جميعا بالكفر وجردوا
مرتكب المعاصي من الاسلام ، وليس أكثر من تركيبتها في ذلك الزمان

وبعد شقاق طويل في معسكر الدولة الذاهبة تقبل الدولة الجديدة وهي مشعبة بين فرعين : فرع بنى على وفرع بنى العباس ، وقد والاها من والاها في ابان الدعوة اليها باسم العلويين ثم اتفق وجود زعيم بنى العباس بالكوفة عند انهزام بنى أمية فبادر أعوانه الى مبايعته وذاع يومئذ انها بيعة الى حين انتظار امام العلويين ، ولم تمض غير سنوات حتى وضع أن انباسيين لا ينزلون عنها وتولى الأمر خليفتهم الثاني بعد أن كان الغالب على الظن أن الخليفة الأول يوصى بها لصاحبها العلوى من أيام الدعوة وهو محمد « صاحب النفس الزكية » .. فنشط محمد لها وآزره العديد الجرم من الأهواز والمراق واقتحم أخوه ابراهيم البصرة فدان له أهلها ، وتمت البيعة له أو كادت لولا غلبة أبي جعفر على بغداد . فلم يلبث أولياء العلويين في البصرة أن تحولوا فجأة أو على مهل الى ولاء العباسيين كل هذا وأبو نواس في سن الفهم والوعى يناهز العاشرة ، ولا يفوته أن يمي ما يرى من تبدل الحال وتبدل الولاء وتقلب الناس مع السلطان والمال ..

(١) استشراء : استشرى الامر تفاقم وعظم .

ثم تساند الدولة الجديدة ويسطع فيها نجم الرشيد . ثم يذهب الرشيد والناس لم يتركوا الحديث عن المستخلفين الموعودين من أئمة العلويين ، ولكن الرشيد يقسم الدولة بين ولديه ويجعل للأمين ولاية العهد بعده ويجعل للمأمون ولاية المشرق برعاية أخيه ، فلا يمضي قليل حتى ينتفض العهد بين الاخوين ، ويعيش الشاعر على مقربة من قصر الملك ببغداد ، فيرى سيد القصر بين خاصته وجنده وذويه وهم يتداولون تسليمه الى عدوه مرة بعد مرة ، ويقتله من أؤتمن عليه ..

وكان الشاعر يذهب حيث ذهب فلا يلقي في الرقعة الطويلة العريضة غير الثورة واشراطها ومقدماتها ، وقسم له في مصر ان يشهد بوادرها وان يعين واليها « الخصيب » على تسكينها ، فخطب الشاغبين بأبياته التي يقول فيها :

منحتكم يا آل مصر نصيحتي	ألا فخذوا من ناصح بنصيب
ولا تشبوا وثب السفاه فتحملوا	على حد حامى الظهر غير ركوب
فان يك باق افك فرعون فيكم	فان عصا موسى بكف خصيب
رماكم أمير المؤمنين بحية	أكل لحيات البلاد شروب

ولم تكن هذه الثورة يومئذ الا الى عودة ، ولم تنقم بعد عودتها الى أن حشد المأمون جيوشه بقيادته ، ولم يعتمد في قيادتها على أحد من ولاته والذين زاملوا أبا نواس في هذا العصر كثيرون ، منهم الشعراء والأدباء ، ومنهم الظرفاء والندماء ، ومنهم العلماء والحكماء ، ولكن أحدا منهم لم يتل بمحنة العصر كما ابتلى بها ، وليس ذلك لأنه كان مستعدا للاباحة بتكوينه وتربيته وحسب ، بل لأنه عاش في قلب التقلبات ولم يكن أثرها فيه مقصورا على المعية في الزمن ، فأبوه كان من جند بنى أمية وضاع رزقه في الجيش الاموى بقيام الدولة الجديدة ، وأمه من الأهواز حومة القتال بين كل خصم وكل خصم يتنازعه ، ومن جراء هذه المنازعات وحرمان زوجها الرزق الرتيب هاجرت من موطن قومها الى البصرة ، وهذه البصرة كانت حومة أخرى للدعوة السياسية جهرا وسرا وبالاقتناع

والارهاب ، فلما آن لوليد هذين الأبوين أن يفهم ويعقل فهم أن الدنيا كلها نفاق وشقاق ولم يعقل من أحداثها وخلاتها إلا أنها اباحة ورياء

العصر الثقافي

وتصطلح على الفتى محنة العصر الثقافي ومحنة العصر السياسي في ضربة واحدة ، فقد كانت مدن العراق يومئذ ملتقى كل ملة ومجتمع كل نحلة ، وكان يغشى البصرة والكوفة مجوس وزنادقة كما يغشاها أهل الهند والصين على اختلاف عاداتهم وشعائهم ومطالبهم في أوقات جدتهم ولهوهم ، وكان من حوله مشتجر^(١) المذاهب حتى في النحو والفقه بل في الفلسفة وعلوم الكلام ، وما يجاورها أحيانا من حذقة المتعلمين ودعاوى المتطرفين ، وتمدى اللغظ بالخلاف والجدال في هذه المسائل طائفة المتأدين والمتحذلقين الى سواد الناس ممن يطلع في الكتب الغريبة أو يطلع في الكتب الماثورة أو لا يطلع على هذه ولا تلك ولا يرجع في اعتقاده الى اطلاع ..

فالاباحية التي نادى بها بابك الخرمي في السنة الأولى من القرن الثالث للهجرة لم تفاجئ العراق ولا جيرتها من البلاد الفارسية ، ولكنها كانت نحلة يدين بها ألوف من العامة وسواد الناس في شمال العراق ، ويتفلسف بها المتحذلقون من المتطرفين ليجعلوا لها محلا من الفكر والطبيعة تأنها تبالى الحلال والحرام ، وهي في جوهرها تستيح كل محظور . وقد هزم « بابك الخرمي » جيشا بعد جيش من أقوى الجيوش العباسية ، ولم يهزم قائد المعتصم الجبار ابراهيم بن مصعب جموع الخرميين الا بعد أن قتل منهم ستين ألفا وشتت أكثرهم فلبثوا في انتظار الفرصة الى حين ثم أغار عليهم جباره الآخر حيدر بن كاوس الافشينى فطاولهم وطاونوه حتى ظفر بزعيمهم وساقه مع أهله أسارى الى بغداد

ولم يقض أبو نواس سنة واحدة بعد خروجه من البصرة والكوفة الا حيث ينغمس كما أسلفنا في « قلب التقلبات » ولا يلامسها ملامسة

(١) مشتجر : اشتجرت الاشجار : اشتبكت وتشابكت والتف بعضها

« المعية » في الزمن وحسب . فلما طلعت بواخر الثورة في مصر كان هو ضيف الخصيب ونديمه ، ولما استفحلت الثورة في عاصمة الدولة كان هو ضيف الأمين ونديمه ، ولما أقصاه الأمين عنه حذارا من وصيته كان ذو الرئاسة - داعية المأمون - يصف القوم جميعا فيقول إنهم « أهل فسق وفجور وخمور وماخور .. »

بل كان رهط الزندقة قاطبة يقيم حيث أقام أبو نواس ..

ومن آفات الاباحه في العصر الثقافي ما يصيب أبا نواس وأضرابه خاصة فيغريهم بالاباحه حيث لا يفرى بها كل نابت في ذلك العصر أو مطنع على مذاهبه الثقافية

فالهوس بالاباحه - احتجاجا على نفاق العلية وأرباب المقامات - انما يعتري أبا نواس وأضرابه لأنهم يرشحون أنفسهم بحكم ثقافتهم لأرفع المناصب وأشرف المجالس وأوجه المراسم . فهم أكفاء أهلها بالثقافة والدراية أو أرجح منهم كفاءة وكفاية ، ولكنهم يصدون عنها ويرون من أهلها الاحتجاز عنهم والاعتزاز عليهم بسمتهم ومهابتهم ، فلا يلعمجهم^(١) شيء كما يلعمجهم الولع بهتك ذلك الحجاز وتلويث ذلك السم واستباحه ذلك الذمار^(٢) ..

فلا يعاني الوضع الجاهل مثل هذا الدافع العنيف الى استباحه الوقار الذي يتدثر به سادة المجتمع . ولا يعاني الوجيه العالم دافعا مثله ، لأن وقار المجتمع وقاره ، وسيادة العرف سيادته .. وانما يعانيه أشد المعاقاة وضع يتسامى الى الوجاهة بحققها ولا يزال مذودا عنها ، منظورا اليه بين أهلها من عل وان ضارعههم في مراتبها ومراسمها

وعلى هذا الرفرف المضطرب بين الضعة والوجاهة كان أبو نواس

لا حرمة له بين الحرمات ، فماله يغار عليها من الاباحه والابتذال ؟

ولا نعرف اسما أصدق من اسم الهوس يطابق ذلك الولع بعرض الاباحه والتحدى بها كما اشتهر بهما أبو نواس غير مزاحم في هذه الشهرة بين أبناء عصره

(١) يلعمجهم : لعج فلان البدن بالضرب : ألمه واحرق جلده . والحب

فؤاده : أحرقه . (٢) الذمار : كل ما يلزمك حفظه وحمايته .

فلا يكفي لاغراء المرء بهذا الولع أن يكون صاحب مذهب في الزندقة
فقد يعتقد الزنديق استحلال المحرمات فيبيحها لنفسه ويقارفها^(١) سرا أو
لايعنت نفسه بالتستر والتجمل ، ثم لايزيد على ذلك

ولا يكفي لاغرائه بذلك الولع أنه يتحدى ذوى الوقار لأنهم يحتقرونه
ويرفعون عليه بسمتهم وكبريائهم . فان المرء اذا تسامى الى الرفعة وبذمه
أهلها قد يضطر اضطرار المغيظ المخنق الى هتك الستار عن ريائهم
والاستخفاف بصيانتهم وهو يود لو لم تلجئه الضرورة الى هذا المأزق
المكروه ، وفرق بعيد بين هذا التحدى المستنكر وبين ارتياح المرء الى
عرض الاباحة كأن العرض غرض مقصود لذاته ، وكأنه لذة أمتع من
اللذات التى يستبيحها

وقد كان أبو نواس يتقى من حسن السمعة مايتقيه الانسان السوى
من مدمتها ، وقد أشرنا الى طرف من كلامه فى ذلك عند الكلام على
الترجسية ، ونشير هنا الى نادرة هي جماع النوادر فى هوى العرض
وشهرة السوء .. رواها ابن منظور فى أخباره فقال إن اخوانا له أشاعوا
« أنه تاب ونزع عما كان عليه من الفسوق والخمر ، فأقبل الناس يهشونه ،
فجعل يكذب ذلك ويقول : والله أنا شر مما كنت . فلما كثر ذلك عليه
دعا بخمار يهودى غلام وأجلسه فى جانبه ومعه خمر ، فكلما جاء من يهشه
يقول لليهودى قبل أن يتكلم : صب لى من خمرى ، فيشرب قدحا ثم
يقبل اليهودى ويقول للذى جاء يهشه : قد رأيت صحة التوبة ! ثم قال
فى ذلك :

قالوا نزعنا ولما يعلموا وطرى
فى كل أغيد ساجى الطرف^(٢) مياس
كيف النزوع وقلبى قد تقسمه
لحظ العيون ولون الراح فى الكاس
اذا عزمنا على رشيد تكنفنى
رأيان قد شغلا يسرى وافلاسى

(١) يقارفها : يرتكبها . (٢) ساجى الطرف : ساكن ، فاطر النظر .

فليس في القصف واللذات أخلصها
والعصر في وصل من أهوى من الناس
لا خير في العيش الا في المجون مع الا
كفاء والحصور والنسرين والاس
ومسمع يتغنى والكثوب لها
حث علينا بأخماس وأسداس
يا موري الزند قد أعيت قوادحه
اقبس اذا شئت من قلبي بمقباس

فليس هذا ولع المتمذهب بزندقة ولا ولع المضطر على رغمه ، وانما
هو هوس المفلوب على طبعه منحرفا عن الخلق السوي في كمين هواه
والانحراف الوحيد الذي يفسر هذا المرض في جميع أعراضه هو
الترجسية أو الفرام بالذات
فداء أبي نواس هو الترجسية بدخائلها وتوابها وخفاياها وألوان
شدوذها

وليس داؤه الشذوذ الجنسي بمعنى الشغف بأبناء جنسه والأعراض
عن المرأة ، فانه لم يكن يعرض عن المرأة ، وليس الشذوذ الجنسي بهذا
المعنى دافعا الى العلانية والاباحة ، وعلماء الأمراض النفسية يدرسون
حالتين من أحوال هذا الشذوذ لكل منهما أسبابها وعوارضها وعلاقتها
بسلامة البنية اجمالا وبالعدد الصماء على التخصيص ، ولكل منهما
كذلك ملابستها البيئية والاجتماعية ، فلا يتشابه الشاذ الفاعل والشاذ
المتفاعل بالملامح والسمات ولا بالأخلاق وعوامل النشأة البيئية والاجتماعية ،
ثم لا يتشابهان في العلاج النفسي عند الأطباء المختصين
والقرائن التي تفسر احدي الحالتين من الشذوذ لا تفسر الحالة
الأخرى ، بل لعلها تناقضها وتبطلها ، فلا يمكن أن يجتمعا الا في شذوذ
واحد هو شذوذ الترجسية بل يجتمع معهما في الترجسية هوى المرأة
وغير هذا الهوى من العادات المريضة كالدلك أو جلد عميرة ، وقد كان

أبو نواس أول من لهج به من الشعراء ونظم فيه لمناسبات لاداعي
لاستقصائها . وهذا الدلك من أعراض المتعة النرجسية حيث يستخدم
النرجسى خياله لتشخيص ذاته Autoerotic Gratification



وجملة القول أن هذه الآفة تفسر كل عادة من عادات الحسن بن هانىء
وكل خبر من أخباره وكل نزعة من نزعاته : تفسر غرامه الفاعل والمنفعل ،
وتفسر غرامه بالنساء وكل ما عرف عنه من الشذوذات الجنسية ، وتفسر
ولمه بالعرض والعلائية واستهتاره بسوء القالة .. لأن هذا كله يتولد من
تشخيص الذات بالصورة التى يستملحها النرجسى ويتخيلها فى خوالجه
الجنسية ، ومن هيامه بالمرض والملائية ولقت الأنظار الى « الذات »
وتقرير وجودها بالتحدى والمخالفة ، أو مايسمونه فى التعبير الشائع
المكايدة ، ويوشك أن يقصروه على الشواغل الجنسية دون غيرها
وكلما أمعن الباحث النفسى فى دراسة هذه الشخصية بدا له أنها من
كل وجه « شخصية نموذجية » فى بابها ، وأما « لقطة » لا تظهر بها
المشرحة النفسية فى كل دراسة . ففيها أثر التكوين الموالود وأثر البيت
وأثر البيئة الاجتماعية وأثر العصر من جانب السياسة وجانب الثقافة ولديها
ثبتت العلامات التى يتشكك فيها النفسيون اذا طرأت منفردة متفرقة
لاتتصل بالقرائن الأخرى فاذا اتصلت جميعا . كما اتصلت فى هذه
الشخصية النموذجية ففى أدل ما تكون على أعراضها وآفات

الشعر والشيطان

الشيطان

للشيطان تاريخ قديم مع الشعر ، وموقع متغلغل في الدراسات النفسية ، وأولها دراسة الدخائل المرضية

فنحن نعلم من أدب الجاهلية قصة أولئك الشياطين الذين يصحبون الشعراء ويوسوسون لهم بدقائق المعاني وخفايا الأفكار التي لا ينفذ إليها الناس بغير معونة الجن . ونعلم من شعر النابغة أن الجن هي التي بنت لسليمان بن داود هياكل بعلبك كما قال :

الا سليمان اذ قال للمليك له

قم في البرية فأحددها عن الفند^(١)

وخيس^(٢) الجن انى قد أذنت لهم

يبنون تدمر بالصفاح^(٣) والعمد

ولكن الشيطان هنا شيطان فنى أو أستاذ فنان لاشأن له بوساوس الضمائر ووساوس الأخلاق ، وكل شأنه أن يصنع ما يعجز الانس عن صنعه لدقته أو ضخامته وفخامته ، وقد كان أرباب الفصاحة كما قال أبو العلاء :

.. كلما رأوا حسنا عدوه من صنعة الجن

هذا الشيطان « الفنى » لا يعنى أصحاب الدراسات النفسية ولا مدخل له في الوساوس المرضية ، انما يعنيه الشيطان « الأخلاقى » الذى يرمزون به لحالة من حالات الضمائر على سواء أو على عوج ، لأنهم يرمزون به أبدا لقيمة وجدانية تتشخص في ضمير الانسان على نحو من الانحاء وعلى هذا لم يكن الشيطان عندهم شيطانا واحدا بل عدة شياطين ،

(١) الفند : الباطل . (٢) خيس : خيس الرجل ذلله . والدابة راضها ودللها . (٣) الصفاح : الاحجار العريضة .

وهم يصاحبون الشعراء أيضا في هذا المجال ، ولكن الآية في هذا المجال معكوسة يقوم فيها الشعراء بصنع شياطينهم على الصورة التي يتخيلونها ... فكل شيطان هو بطل يصوره الشاعر كما يصور أبطال ملاحمه وتواريخه ، ويكاد كل شيطان من هذا القبيل أن يعرف باسم شاعره المختار ..

فهناك الشيطان رمز الكبرياء والتمرد ، وقد صوره الشاعر الانجليزي ملتون Milton في فردوسه المفقود وصوره الشاعر الايطالي Carducci (١) في نشيده الى ابليس ، وأجمع النقاد على أن الشاعرين قد صوراه مريدا متكبرا ثائرا لأنهما عاشا في ابان ثورة عنيفة فوضعا على لسانه الكلام الذي يريدانه ويخفيانه في مضامين القول أو يعلنانه ..

ومع هذا الارتباط بين ثورة انجلترا وشيطان ملتون ، وبين ثورة ايطاليا وشيطان كردوتشي ، يرى النقاد أن هذين الشيطانين نسخة مقتبسة من أقدم الشياطين المتمردين في آداب العالم المحفوظ ، وهو الرب اليوناني القديم برومسيوس Prometheus الذي تمرد على رب الأرباب زيوس ليعلم أبناء آدم ما أخفاه الأرباب عنهم ، ويتخذ من هؤلاء الآدميين تلاميذ له ومريدين

وملتون وكردوتشي مسيحيان ، ولكن النقاد يقولون إن الشيطان في شعرهما أقرب الى صورة برومسيوس من الصورة التي مثلها العهد القديم لابليس الرجيم ..

وعلماء النفس يستنبطون من صورة برومسيوس والنسخ المنقولة عنها أن التمرد عريق في طبيعة الانسان

وهناك عدا الشيطان الذي يرمز الى التمرد والكبرياء شيطان يرمز الى السحر والمعرفة الباطنية وهو مفستوفليس بطل رواية فوست من نظم جيتي شاعر الألمان

واسم مفستوفليس على الأرجح منحوت من ثلاث كلمات يونانية بمعنى الذي لا يحب النور ، لأنه يتعلم المعرفة ويعلمها كأنها ضرب من

(١) مريدا : شيطان مريد اي خبيث شرير .

التجسس في الظلام على الأسرار الالهية ، فهو يلتصقها في السحر والطلاسم
ويجعلها ألغازا يتولى حلها لمن يشاء

وهذا الشيطان كما صورته جيتى والشعراء من قبله ، يصنع أكسير
الحياة ليطيل به العمر ويرد به الشباب الى الشيوخ ويساوم به على
الضماير والأرواح فمن باعه الحياة الأبدية أخذ بديلا منها المتعة والقوة
والسيطرة بالمعرفة في حياته الأرضية

وعند النفسيين أن هذا الشيطان متمرّد متكبر كذلك الشيطان ولكنه
يتمرّد بسقطة من حيث يتمرّد ذلك الشيطان بنفسه ، وسلاحه المعرفة من
حيث يتسلح زميله القديم بالشجاعة الحربية

ولم يبتدع النفسيون المحدثون هذه الفكرة بطلهم الحديث اذ الواقع
أن الأقدمين من أهل الثقافة اليونانية أو العبرية كانوا يحسمون المعرفة
كلها ضربا من التمرد والتطاول على علم الاله العليم . فالليونان الأقدمون
كانوا يسمون هذا الفضول الانساني بالهويرى Hubris والمبرانيون
الأقدمون كانوا يسمون الشجرة التي أكل منها آدم بشجرة المعرفة ولا
يحمدون من الانسان أن يتطاول الى علم كعلم الاله

فالتمرد خلة مشتركة بين شيطان ملتون وكردوتشى وشيطان جيتى وقد
فضل جيتى شيطان المعرفة لأنه كان في عصر النهضة العلمية ببلاده ،
وفضل الشاعر الانجليزي والشاعر الايطالى شيطان الغضب والتحدى
لأنهما كانا يفضبان ويتحديان ويمثلان ثورة الأمتين على سلطان الملوك
وسلطان الكهان ..

وتزاد على هاتين « الشخصيتين » الشيطانيتين صورة أخرى من قريحة
شاعر شرقى ، يتخيلها في بعض أحلامه ويرينا فيها الشيطان فاتنا وسيما
يكذب بملاحته أقاويل أبناء آدم عن دمايته وقبحه ، لأنهم مطرودون
موتورون (١)!

ذلك الشاعر الشرقى هو (السعدى) صاحب البستان والجلستان ،
وأكثرهما مترجم الى اللغة العربية

(١) موتورون : الموتور من له ثار عند غيره .

فمن قصائده تلك القصيدة التي يتحدث فيها عن ملهم رأء كما زعم
أو كما تخيل ، فيقول :

« رأيت الشيطان في ملهم .. فيا عجباً لما رأيت ..
« رأيت على غير ما وهمت من صورة شماء تخيف من ينظر اليها ..
« قامة كفرع البانة . عينان كأعين الحور . طلحة كأنها تضيء بأشعة
النسيم ! ..

« قاربتك وسألت : أتعق أنت الشيطان المرید ؟ أحق ذلك ولا أرى ملكاً
له جمال معياك ؟ ولا عينا قد نظرت الى شبيه سيمالك
« ما بال أبناء آدم يتخذونك لهم ضحكة فيما يصورونك ؟
« وفي وسعك أن تعطو لهم وجهاً كصفحة البدر ، ونظرة تتهلل ببهجة
الرضوان ؟ وابتسامة تشرق بالنسيم ؟
« أولئك الرسامون يفضونك الى العين ، وحمامات الانس تكشفك
لنا في صورة تنقبض لها القلوب !
« ويقولون لي : انك كالليل البهيم
« وما أرى أمامي الا الصباح المنير

« سألت وتسمعت ..
« فتعرك العظم السامر ، وترفع له صوت فخور
« ولاست على طلعتة كبرياء ، وقال :
« لا تصدق يا صاح أنه مثالي ذلك الذي رأيت فيما يمثلون ..
« فان الريشة التي ترسمني تجري بها يد عدو حسود
« سلبتهم السماء ، فسلبوني الجمال ...

وهذه صورة للشيطان لاستغريها من مصورها . فقد كانت للسعدى
طبيعة يمتزج فيها التصوف بالحكمة العملية ، وقد طاف الرجل أقطار
المشرق وجاس خلال فارس والعراق والهند وعاش بين الوشائات وقصور

الأمراء والوزراء ورأى أناسا بعد أن سمع عنهم وسمع عن أناس بعد أن رأهم، فخرج من سياحاته وتجاربه وهو يعلم ما وراء الشناء وما وراء المذمة، وشعاره في الحياة « ألا تصدق كل ما يقال » . ولا شك في أنه لم يصور الشيطان على تلك الصورة التي تخيلها أو حلم بها إلا بعد أن رأى الشياطين من الانس في أجمل صورة وقاس الأمر بعقله فخطر له أن الشيطان خادع محتال وأنه لن يخدع الناس ويستهوهم بوجه يقابلونه بالنفور والاعراض ..

وتزاد بعد هذه الشخصيات الشيطانية المتباعدة أو المتقاربة شخصية أخرى يعدونها مثالا للشيطان الذي يخلقه الشاعر على صورته ، وذلك هو شيطان الشاعر الروسي لرمنتوف Lermontov الذي عاش في أوائل القرن التاسع عشر وسمع من بعيد بمقلقات الفكر في غرب القارة الأوروبية فهذا الشيطان الذي صورته لرمنتوف هو لرمنتوف بعينه مزيدا عليه ما يتمناه ولا يناله لأنه إنسان ، فإن الشيطان يتشكل بما شاء من الأشكال ويظهر للعيان أو يتوارى كما يشاء ، وقد يتوارى عن قوم ويبدو لغيرهم وهم في مجلس واحد

وهذا الشيطان مسكين معرض للفجأة باختياريه ، فهو يحب فتاة من الانس ويتراءى لها متجسلا في أبهى حله فتهواه وتكاد أن تجفو خطيئها من أجله ، ثم يغار الشيطان من ذلك الخطيب فيقتله وينقل جثته الى الفتاة لتوقن من وفاته وتنسأ فتقلب الآية وتحزن عليه حزنا يحجب عن عينيها محاسن الحياة فتأوى الى الدير وتنذر الرهبانية مدى الحياة .. ويجن جنون الشيطان فيلاحقها ويتصدى له الملك الحارس عند باب الدير وتصطرع قوة الشر وقوة الخير فينهزم الملك وينتصر الشيطان ، وينفذ الى حجرة الفتاة فيملك الجسد وتصعد الروح الى السماء

ولم يتصرف لرمنتوف كثيرا في نقل هذه الصورة من ذات نفسه ، ولم يتعد بالحادثة كلها عن المكان الذي أقام فيه وهو يكتب القصة ، فقد أجراها في بلاد القوقاز حيث كان يقيم منفيا مغضوبا عليه ..

هذه نماذج من الشياطين ، بين نموذج الشيطان المتكبر المتمرد ونموذج الشيطان الوسيم القسيم ونموذج الشيطان الساحر الساخر ونموذج الشيطان الخادع المخدوع

ولعه بالشيطان

وقد كان أبو نواس كثير اللهج بذكر الشيطان ، كثير التعويل عليه في غواياته ومغامراته ، فأى هذه الشياطين هو شيطانه « المختار ؟ » .. وأى أثر لشخصية أبي نواس في شخصية ذلك الشيطان ؟

ان شيطان أبي نواس هو الشيطان الذى يريده ، أبو نواس ، أو هو الشيطان الذى يلزم أبا نواس

ففيه كل خلة من هذه الخلال بالقدر الذى ينتفع به أبو نواس . فيه التيه والخبث والعلم والحيلة والظرف على حسب الطلبة الموقوتة والحاجة العارضة ، وكأنه لم يخلق الا لأبى نواس خاصة ، ولا عمل له الا أن يرضى أبا نواس ولو خالف مهمة حياته وهى الاغراء بالمعاصى والذنوب فمن مهمة ابليس أن يغرى الناس بشرب الخمر ما استطاع ، ولكنه مطالب عند أبي نواس بأن يكف عنها عذاله ومن يترفع عن مشاجتهم اياه فى تعاطيها ..

فاديت ابليس ثم قلت له لا تسق هذا الشراب عذالى
وابليس فى صورته عند أبى نواس تياه خبيث
عجبت من ابليس فى تيهه وخبث ما أظهر من نيته
وهو فى صورته عنده عليم فقيه يستنبئه فيفتيه ..

انى قصدت الى فقيه عالم
متسك حبر من الأخبار
متعمق فى دينه متفقه
متبصر فى العلم والأخبار

قلت النبيذ تحمله فأجاب لا
 إلا عقاراً ^(١) ترمى بشرار
 قلت : السماع فما علمت أجباني
 إلا بخفق العود والزمار
 قلت : المتادم من يكون ؟ أجباني
 لا تمدلن عن ما جن عيسار
 قلت : الصلاة فقال فرض واجب
 صل الصلاة وبت خليف عقار
 أجمع عليك صلاة حول كامل
 من فرض ليل فاقضه بنهار
 قلت الصيام فقال لى : لا تنوه
 واشدد عرى الإفطار بالافطار
 الى أشباه هذه الفتاوى الابليسية
 وهو عنده ظريف يمينه على فساد :
 لم يرض ابليس الظريف فمالنا
 حتى أعان فسادنا بفساد
 ولكنه فى كل أولئك ابليس خاص بأبى نواس ، يخدمه على الطلب
 ويؤثره بالخدمة ويذل له من يعصيه ..
 فردّه الشيخ عن صعبوته
 وصار قوادنا ولم يز
 وكانما خلق ابليس لأبى نواس على تفصيل « المزاج النرجسى » الذى
 يتدلل ويتأبى ولا يملك ابليس الا أن يجاريه فى دلاله وتأبيه
 وليستحضر القارىء صورة طفل مدلل يسوم أبويه ما يرضيه وما
 يغضبه ففى أية صورة يتمثله ؟
 انه اذا شاء أن يهدد أبويه أنذرهم لا يأكلن الطعام ولا يشربن الدواء
 ولا يدخلن الحمام حتى يرى ما يشتهيه بين يديه وانه ليسوق الحران

(١) عقارا : العقار بالضم الخمرة لانها تماقر الدهن أي تلازمه .

أسيانا فيرفض كل شيء ويلوى وجهه عن كل سلموى
أليس هذا هو أبا نواس بعينه حين يهدد إبليس وينذره :
ان انت لم تلتق لى المودة فى
صدر حبيبى وأنت مقتدر
لا قلت شعرا ولا سمعت غنا
ولا جرى فى مفاصلى السكر
ولا أزال القرآن أدرسه
أروح فى درسه وأبسكر
أليس هذا هو أبا نواس بعينه وهو يزعم التوبة ويتجنى على إبليس
فيأبى كل ما يذله له من شهوة ومتاع :
هل لك فى عذراء مسكورة
يزينها صدر لها فخم
ووارد جئل على منتهى
أسود يحكى لونه السكرم
فقلت « لا » قال فتى أمرد
يرتج منه كفل فمم
كأنه عذراء فى خصرها
وليس فى بته نظم
فقلت « لا » قال فتى مسمم
يحسن منه النقر والنغم
فقلت « لا » قال ففى كل ما
شابه ما قلت لك الحزم
ما أنا بالآيس من عسودة
منك على رغمك يا قدم^(١)

وينم أبو نواس على أخفى الخفايا بين جوانحه حين يعجب من تيه
إبليس على آدم ثم خدمته لشهوات أبنائه ، أو بعبارة أخرى لشهوة ابنه

(١) قدم : القدم القليل الفهم .

أبى نواس خاصة :

عجبت من ابليس في تيممه
وخبت ما أظهر من نيتيه
تاه على آدم في سجدة
وصار قوادا لذريتيه

أو على الأصح أنه قد صار قوادا « خصوصا » لأبى نواس
فردده الشيخ عن صعوبته وصار قوادا ولم يزل

فمن هنا ننتمى الى عقدة العقد في طوية الشاعر ، وقد أسلفنا أن مثله
لا يتعرض كثيرا للعقد النفسية لأنه ييوج ردائله ولا يكتفم أقبحها
وأفضحها فلا سبيل للعقد النفسية الى طويته من قبل هذه الردائل ، ولكن
مشكلة النسب المدخول هي العقدة التي غلبته فكانت من دوافعه الى
ادمان الخمر ومن بواعث الاحتيال عليها بالحيل المتتوية التي يصطنعها
« مركب النقص » في أمثال هذه المشكلة

فماذا يفخر الفاخرون بالآباء من الآدميين قاطبة أكثر من أنهم أبناء
آدم ؟ ... ومع هذا يتيه ابليس على آدم ولا يتيه على ابنه « أبى نواس »
خاصة حين يخدمه ويكاد يفرغ لخدمته قبل سواء

بل مع هذا يأبى ابليس أن يسجد لآدم ولا يأبى أن يسجد للحسن
ابن هانيء .. كما جاء في حديث والبة : « ترى غلامك الحسن بن هانيء ؟
قلت ما شأنه ؟ قال . ان له لشأنا ، فوالله لأغوين به أمة محمد ، ثم لا أرضى
حتى ألقى محبته في قلوب المرائين من أمته وقلوب العاشقين لحلاوة شعره
قال والبة : فعلت أنه ابليس ، فقلت : فما عندك ؟ قال عصيت ربي في
سجدة فأهلكني ، ولو أمرني أن أسجد لهذا ألف سجدة لسجدت » ..

ورواية القصة على هذا النسق اليق رواياتها بسياقها ، وسواء كان
والبة قد أوحاها الى غلامه أو كان غلامه قد أوحاها اليه لقد رسخت في
ذهن الغلام وأعجبت به وارتفعت به هواجس أحلامه وأمانيه الى القاية

القصوى من الفخر بالآباء ، وهل بعد آدم غاية يرتفع إليها أبناء : آدم وحواء ؟ ..

الشیطان ومذهب فروید

ويدعونا الكلام عن الشيطان وعقدة الأب أو النسب الى استطراد في مذهب « فروید » حول هذا الموضوع ، يدور على قصة مصور من أبناء القرن السابع عشر فقد أباه وحالف الشيطان ودفعته الى هذه المحالفة الشيطانية تلك العقدة النفسية التي يسميها فروید بعقدة أوديب ، ويقول في شرحها إنها عقدة تتولد من حب الطفل لأمه وغيرة عليها من أبيه ، ويكاد فروید يزج بهذه العقدة في تعليل التاريخ الانساني من أوله غير قانع باستخدامها في تعليل المسائل الفردية والأزمات الوجدانية التي تعترى لهذا من حين الى حين

وعقدة أوديب في رأينا لا تؤخذ جملة ولا ترفض جملة .. اذ ليست كل غيرة على الأب غيرة جنسية ، وبخاصة حين تكون الأم هي كل شيء في حياة الطفل الرضيع فيغار عليها غيرة على حظوته وغيرة على طعامه وغيرة على سلامته وغيرة على كل شيء يحسه ويدركه ، وقد رأينا كلابا تغار من كل شيء يعنى به صاحبها ومن كل أحد يدالله أمامها ، ولا تختلف هذه الغيرة باختلاف الذكورة والأنوثة ولا باختلاف الحياة والجماد ، واذا كان الجنس يفسر كل شيء على رأى فروید فهو لا يفسر شيئا على الاطلاق ولا يميز لنا بين دافع ودافع من دوافع الحياة

ومن ضعف مذهب فروید في هذه النقطة أنه يفترض حيناً أن الطفل الذكر يغار من أبيه على أمه ويفترض حيناً آخر أنه يغار من أمه على أبيه ويحب أن يستأثر بالأب استئثاراً جنسياً كاستئثار الزوجة بالزوج ، ثم لا ينجح أقل نجاحاً في التفرقة البيولوجية « الحيوية » أو النفسية بين الطفل الذي يغار من أبيه على أمه والطفل الذي يغار من أمه على أبيه وهذا الشطط في تعليلات فروید وتخريجاته يعيبه عليه تلاميذه قبل

العلماء المعارضين له في أساس مذهبه فيرى Adler أن عقدة أوديب ليست ضرورة أساسية تستقر في الوعي الباطن لكل وليد ، وإنما هي ميل عارض يحدثه سوء التصرف من بعض الآباء وبعض الأمهات . ويرى Jung أن الطفل لا يدرك في أمه صفة جنسية وأن « عقدة أوديب » إنما تستحكم عند منارقة الفتى لبيت الأسرة الذي عاش فيه بين أبويه فإن لم تشغله في هذه الآونة وشيخة^(١) روحية لجت به علاقته بالبيت ولم يستطع أن يفصل عن الفارق بين جو الأسرة بحنائه وعطفه وجو العالم الخارجي بقسوته وعنفه ، ودارت نفسه حول شعوره بأمه أو شعوره بأبيه . وقد وضع « ينج » عقدة « الكترا » Electra إلى جانب عقدة « أوديب » خلال تفسيره لما يشاهد من ميل البنات إلى الآباء وميل البنين إلى الأمهات

أما Sullivan فحلله أكثرهم توفيقاً في تفسيره لحب البنات للآباء وحب البنين للأمهات . فانه يرد ذلك إلى سلوك كل من الأبوين نحو الطفل المخالف لجنسه . فالأب لا يتدخل مع بناته في الخصوصيات والأم لا تتدخل مع أبنائها الذكور فيما يتناول هذه الخصوصيات عندهم ويؤدي هذا إلى استخفاف البنات لوطأة الآباء وشعورهن بالأمان معهم ، كما يؤدي إلى استخفاف البنين لوطأة الأمهات وشعورهم بالأمان منهن ، وإذا شاب هذا الشعور من خفيف من النظرة الجنسية فهو عارض لا يتعمق إلى مكمن الفرائز في باطن كل إنسان

فمقدمة أوديب قابلة للتفسير بتخريجات كثيرة غير العاطفة الجنسية وهي في القصة التي نسردها خلاصتها صالحة للمقارنة بين بطلها وبين أبي نواس ، لأنها تشتمل على عقدة الأب ومخالفة الشيطان وبطلها فإن يتعاطى الخبر ويكثر منها أحياناً فتتجسم أمامه الرؤى والأشباح

تناول فرويد موضوع هذه القصة في تقرير مفصل كتبه سنة ١٩٢٣ وبناء على وثيقة مأخوذة من دار المحفوظات الامبراطورية بمدينة فيينا فعخواها أن المصور كريستوف هايتزمان من أهالي بافاريا عاهد الشيطان

(١) وشيخة : علاقة ، رابطة .

وكتب منه عقدا مؤثما بالمداد الأسود ثم عقدا موقعا بالدم على أن يبيعه روحه ويسجد بموته . وحدث ذات يوم (٢٩ أغسطس سنة ١٦٧٧) أن هذا المصور كان يصلي في الكنيسة فسقط مصروعا وجيء به إلى المستشفى فاحترف له بتلك الماهدة وتوسل إليه أن يسأل السيدة العذراء أن تهتفه من أوهانق^(١) الرجيم وتسترد منه الوثيقة التي تسلط بها عليه . ثم رأى المصور بعد فترة قضاها في التوبة والتكفير أن الشيطان جاءه بوثيقة الدم وحفظ عنده وثيقة المداد الأسود ، فشفي من داء الصرع برهة ثم عاودته النوبات وتمشات له في خلالها الأطياف المتعسة من عليين ، ووقع في روعه أنها لا ترضى عنه مابقيت في حوزة الرجيم تلك الوثيقة السوداء

ويستدل من الأوراق المحفوظة على سر هذه المساعدة ، وهو حالة اليأس والهبوط التي استولت على الفتى بعد فقد أبيه فصرمته لذة الإقبال على العيش ، ثم حرمة فوق ذلك قدرته على اتقان فنه فاضطربت موارد رزقه وغامت على عقله غيمة الخوف والتشاؤم ، وظهر له الشيطان في إبان هذه الأزمة .. فسماومه على روحه ، وأطمعه في رد كل مافقده من بشاشة العيش وبراعة الفن ، فانقاد له ولكنه رفض ما عرضه عليه الشيطان من العلم بطلاسم اسحر والمتعة بالمسرات والأموال ولم يطلب منه الا ملبة واحدة ، وهي أن يكون ابن جسده وأن يندمج فيه روحا وبدنا ، بعد تسع سنين وأن يحل في خلال هذه السنوات التسع محل أبيه ..

وللقصة حواش متفرعة لخصها فرويد في رسالته وعلق عليها فكان موقفا في جوهر تعليقاته ..

قال ان عجز المصور عن اتقان فنه بعد وفاة أبيه ان هو الا طساعة منرجاة Deferred obedience لأن أباه كان ينهيه عن الاحتراف بهذا الفن فخصيه أثناء حياته وغام عليه تبسكيت الضمير بعد موته ففر من هذا الفن وعزفت منه نفسه وتمذر عليه اتقان صورته . فكسدت سوقه وبارت

(١) أوهانق : جمع وهق : وهو حبل فيه انضوطة تؤخذ به الدابة .

تجارته وثقلت عليه أعباء العيش وتبكت الضمير فساورته الأوهام وود
الخلاص . وهو يؤمن كغيره من أبناء القرون الوسطى بقدرة الشيطان
على السحر والطب ، فخيّل إليه الوسواس أنه عاقده واعتمد على سنده ،
وشخصه في صورة أبيه الذي يحنو عليه ويرعاه

قال فرويد ما فحواه : إن شعور الابن بأبيه — ولا سيما الابن المختل
كهذا المصور — هو شعور مزدوج متقابل Ambivalent بره أباه في صورة
الحامي المودود وفي صورة العائق المخيف معا ، فهي صورة تلتبس في
باطن السريرة بصورة الشيطان المقتدر المرهوب ، وما كان الشيطان
عند ذلك المصور الا بديلا من أبيه لا يبغي منه الا الحماية والانتقاذ

والقصة في جملتها تغرى بالمقارنة بين هذا المصور وأبي نواس ،
فكلاهما فنان وكلاهما يعاقر الخمر وكلاهما يحالف الشيطان على نهجه ..
والاغراء بالمقارنة يأتي من أوجه الشبه ومن أوجه الاختلاف بين
« الشخصيتين » ..

فأبو نواس لا يشعر بالكبت فلم يصبه الخبل ، ولا يثقل عليه نهى
أبيه عن مزاولته فنه ، فلم يعجز عن قرض الشعر في حياة أبيه ولا بعد موته
الا أن الواضح من سيرة أبي نواس أن الشيطان كان بديلا عنده من
المعلم لا من الأب . وكان كل من معلميه الذين طالت عشتهم له في صباه
فاسقا شاذا يتخذ معه شكل الشيطان في تعليمه إياه الفجور والانقياد
للشهوات ، فوالبة بن الحباب معلمه الشعر زنديق ماجن ، وبدر الجهمي
البراء معلمه العطار على هذه الخليقة من الفجور والمجون ، وقد تقدم
في الفصل السابق أن التلميذ النرجسي يتوق الى أستاذ يكون عنده بمثابة
العزيم المدلل pet ويتطلع الى مكانة خاصة لديه فهذا الشيطان الذي كان
أبو نواس يسميه شيخه هو بديل الأستاذ حين شب عن طوق التلمذ على
والبة الشاعر وبدر العطار

ولو كان أبو نواس يعاقد الشيطان سرا لاختبله الوسواس الذي اختبل

المصور وأوقع في روعه أنه هالك مابقى في يد الشيطان ذلك العقد الموقع
 بالمداد الأسود وذلك العقد الموقع بالدم ولكن أبا نواس كان يحالف
 الشيطان ويجهز بمخالفته وكان يلعنه ويحسب أن اللعنة هي التحية
 المحيية اليه فسلم من الخبل بالعلانية وإن لم يسلم من كل عقدة نفسية
 تتعلق بالنسب كما سئرى في بيان العقدة التي ألجأته الى ادمان السكر
 والهيام بالخمير هيام المتهوس المقتون

عقدة الأديان

أبونواس والخمر

نكرر هنا أن طبيعة أبي نواس لم تكن من الطبائع التي تتسلل اليها العقد النفسية ، لأنه كان ييوح برذائله ويتكشف بها ويتعمد أن يجبه الناس بها علانية ، وانما تكمن العقدة النفسية في طوية الانسان أو تتسلل اليها من الكبت وطول الكتمان

الا عقدة واحدة هي الاستثناء لهذه القاعدة ، وهي عقدة الادمان .. فقد كان ادمانه الخمر هوسا ولم يكن مجرد عادة أو لذة ذوقية ، ولا بد وراء كل هوس من عقدة نفسية

فما هي هذه العقدة التي أصابت نفسا محصنة من العقد فغلبتها ولم تفلح فيها اباحتها ولا العلانية التي عاش فيها من طفولته الى ختام عمره

انها غلبته لأنها جاءت من قبل طبيعته ، ونعني بها الطبيعة النرجسية .. فهي الطبيعة التي تزين للنرجسى عادات العرض والظهور ، وهذه العقدة النفسية ليست مما يتقبل العرض والظهور ، لأنها مهينة لصاحبها مذلة له بين قومه ، وهي خسة النسب في عصر الأنساب والأحساب

وربما خطر لبعضهم أن انسانا مثل أبي نواس في مجونه واستخفافه لا يعنى بمثل هذه العقدة ولا يتحرج منها وهو لم يتحرج قط من منكر أو رذيلة . لكنه عند النظر اليه خاطر خاطيء لا يثبت على التأمل والمراجعة فان احتمال الهوان يهدم النرجسى ولا يبقى له بقية يعتصم بها ، وأما احتمال الملام والنقد فقد يجارى طبيعته اذا كان فيه معنى التحدى ولقت الأنظار . وقد يهزأ النرجسى باللام واللام مع علمه برياء اللاميين وتذبذب الناقدين واعتقاده أنهم مثله في الفجور وان خالفوه في الظهور

وينبغي أن نعرف قوة هذه العقدة النفسية في زمان أبي نواس خاصة قبل أن نعرف السر في غلبتها عليه وعلاجه لها بأدمان السكر والتهافت على عشرة الندماء ..

فالعصر الذي عاش فيه أبو نواس كان معترك الانساب والاحساب بين كل انسان وكل انسان في الدولة الاسلامية

هب فيه الشعوبيون يفاخرون العرب ولا يعترفون لهم بفضل غير فضل النبوة ، ثم يغمزون فضلهم هذا بتعميرهم بما جنوه على عترة النبي عليه السلام ومفاخرتهم اياهم بانتصارهم لتلك العترة وتشيعهم لآل البيت من العلويين والعباسيين ، ولم يزل هؤلاء الشعوبيون يفخرون على العرب بالحضارة والصناعة والترف والكياسة حتى قال قائلهم : « لا يفلح العربي الا ومعه نبي يوحى اليه ! »

والعرب أنفسهم كانوا فيما بينهم يتنازعون الفخار بين قحطان وعدنان أو بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، وكانت كل قبيلة من القحطانية تفاخر القبائل الأخرى بالكثرة والعزة وسوابق التاريخ ومكارم الآباء والابطال ، وكذلك كانت تفعل كل قبيلة من قبائل العدنانيين

بل كان أبناء البيت النبوي العلويين والعباسيين يتنافسون على شرف النسب ويرى أبناء العباس لاختوتهم شرفا لا يروونه لأبناء علي ، لأن العباس عم وعلي ابن عم . فيقابلهم أبناء علي بالانتماء الى فاطمة الزهراء ، وهي بنت النبي عليه السلام

وتكاد لا تسمع بأحد في ذلك العصر الا سمعت حوله بفخر نسبه أو بمنازعة له عليه ، ولا استثناء في ذلك للخلعاء المتبذلين بل لعلهم أحرص على دعوى النسب من غيرهم على سبيل التعويض والعزاء

فهذا والبة بن الحباب أستاذ أبي نواس لم يهبط أحد الى حضيض المهانة والزراية كما هبط بين سواد الناس وبين زملائه من الشعراء والأدباء ، وكان مع هذا يستطيل عليهم بنسبه العربي ويدعو شاعرا كآبي الصاهية الى هجوه وانكار نسبه والنزول به الى طبقة ، أى طبقة

الموالى المعترفين بحرمانهم من عراقة النسب ومن الأصالة العربية ، فيقول له فيما قال :

وابن الحباب صليبة (١) زعموا ومن المحال صليبة أشقر ويقول :

هلم الى الموالى الصبي د في سعة وفي رحب
فأت بننا - لعمر الله - أشبه منك بالعرب

وقد تلخص هذا الشغل الشاغل بالنسب في ذلك العصر حقيقة مشهورة في علم الأنساب ، وهي ظهور أول كتاب عن الانساب في تلك الفترة لامام السايين ابن الكلبي صاحب جمهرة الانساب المتوفى حوالى سنة خمس ومائتين للهجرة ، وقد ظهر في مدينة الكوفة وهي من بيئات أبى نواس ذلك هو مبلغ شغلان العصر بالنسب وهو المهم في هذا الصدد لأنه هو مقياس قوة العرف في هذه المسألة التى تمتحن بها طبيعة أبى نواس ، وكلها تشوف الى العرض والظهور

أما مبلغ شغلان أبى نواس بها فهو من التواتر والتواطؤ بين الشواهد والاعراض بحيث تكفى فيه الإشارة دون الاسهاب

فلا خفاء بلهفة أبى نواس على النسب العربى يتلمسه تارة في هذه القبيلة وتارة في غيرها من اليمانية أو النزارية حيثما اتفق مقامه وتفتحت له أبواب الدعوى والالتماء ، وما كان هو يكره أن يفخر في الحانات بالنسب لو سلم له هذا الفخر بين أربابه المسلم لهم بحقه ، فمن شعره في الخمریات ذلك الحوار الذى دار بينه وبين الخمار يسأله عن نسبه ويجيبه :

وخمار طرقت بلا دليل سوى ربح العتيق الخسروانى
فقام الى مذعورا يلبي وجوف الليل مثل الطيلسان
وقال : أمن تميم ؟ قلت كلا ولكنى من الحى اليمانى

وأشد من ذلك ابانة عن هذه اللهفة المطوية في قرارة نفسه أنه كان.

(١) صليبة أى عربى قبح

يهجو فلا يقع على هجاء لأحد أقبح من الأصل الخسيس كما قال
للرقاشي :

والله لو كنت جريراً لما كنت بأهجي لك من أصلكا
وكما قال للهيثم بن عدى :

الحمد لله هذا أعجب العجب الهيثم بن عدى صار في العرب
وأدق منه في الابانة عن طوية الشاعر قوله لحمدان بن زكريا :
ما أنت بالحر فتلحي^(١) ولا بالعبد نستعته بالعصا
فرحمته الله على آدم رحمة من عم ومن خصصا

وموضع الدقة الذي نعينه هنا وثوبه بالنسب الى أبي الآباء آدم ،
وهو الذي أعجب الشاعر لأن إبليس يتيه عليه ولا يتيه على ذريته ،
وداخله الوهم أن إبليس قد أبي له السجود ولا يأبى السجود لابنه أبي
نواس ألف سجدة

وربما كان أشد من ذلك ابانة عن لهفته على النسب أنه يمدح خليفة
يتسع للشاعر مجال تعظيمه وتمييزه بالصولة والنعمة والسجايا والسمات
ما صدق منها وما كذب فلا يرى مدحا له أبلغ من نسبه :

أبوك الذي لم يملك الأرض مثله وعمك موسى الصفوة المتخير
وجدك مهدي الهدى وشقيقه أبو أمك الأذننى أبو الفضل جعفر
ومن مثل منصوريك منصور هاشم ومنصور قحطان اذا عد مفخر
فمن ذا الذي يرمى بسهميك في العلا وعبد مناف والداك وحمير

وفي مقطوعة غير هذه يقول في هذا المعنى :

رضينا بالأمين عن الزمان	فأضحى الملك معبور المعاني
تمنينا على الأيام شيئا	فقد بلغتنا تلك الأمانى
بأزهر من بنى المنصور تنمى	اليه ولادتان له اثنتان
وليس كجدتيه أم موسى	اذا نسبت ولا كالخيزران
له عبد الميدان وذو رعين	كلا خاليه منتخب يمانى
فمن يجحد بك النعمى فاني	بشكرى الدهر مرتين اللسان

(١) تلحي : لحي الرجل صاحبه لانه وسبه وعابه • والله فلانا قبحه •

وتنطوى هذه اللهفة في نفس انسان لم تكن المهانة هينة عليه بل كان
نياها بطبيعته « النرجسية »

لقد زادنى تيمها على الناس اننى أرانى أغناهم وأن كنت ذا عسر
وكان يهتبيل^(١) الفرصة للتعالي على الذين يتعالون عليه فكان يجلس
حيث جلس ويتلقى التحية من القادة والرؤساء فلا ينهض لواحد منهم .
ولم ينهض لأحد حياه غير أبى العتاهية .. وفى هذا أيضا دلالة على دخيلة
نفسه من هذا الجانب . ! فقد كان أبو العتاهية من الموالى وكان فى شبابه
على زى المختئين وكان هو معاصره الوحيد من الشعراء الذى صافاه
ولم يقاطعه أو يترفع عنه ونكاد نرى أن انتماءه الى والبة فى صباه انما
كان لدخيلة كهذه الدخيلة . فان والبة كان مطعونا فى نسبه وكان أبيض
كأبى نواس — أو أشد بياضا — وأبوه أسود كأنه زرزر^(٢) كما قال أبو
العتاهية :

مالى رأيت أباك أسود غر ييب القذال كأنه زرزر
وكان وجهك حمرة رئة وكان رأسك طائر أصفر

وقد تناقست علاقة الشاعرين بوالبة فأبو العتاهية يهجو له لأنه مثله
فى عقدة نفسه وأبو النواس يألفه لأنه مثله فى محاولة الخلاص من
شبهة نسبه ..

ونعتقد أن أبا نواس انما تشبث بالكنية وترك اسم أبيه فرارا من هذا
السبب المدخول . فهى مناط الدعوى عنده ولم يكن نسبه الصحيح الا
مسبة له من السفلة والعلية على السواء

كانت الجارية عنان تريد النكاح به فتذكر له اسم أمه جلبان ، وكان
الخليفة الأمين يسبه فيذكر له اسمها الآخر « شحمة » وكان أبان ومن لف
لفه من الشعراء يهجوته فيسمون أباه « هنيا » أو النساج المتستر على
حريمه وما شاكل ذلك من المثالب التى كان يعيبى الجواب عنها على تعجله
بانهجاء حين يشاء . فلا جرم تساوره العقدة فلا يجد لها حلا فى غير الادمان

(١) يهتبيل : يغتنم الفرصة . (٢) زرزر : أو الزرزور طائر مرقط من
نوع المصفر .

لماذا يشرب الخمر ؟

وللمؤرخ النفسى أن يكتفى بما تقدم للإبانة عن شدة اهتمام العصر بالنسب وشدة اهتمام أبى نواس به فى عشرته لكل طبقة من طبقات المجتمع الذى احتواه . الا أننا نرى على الدوام أن ديوان الشاعر أصدق ترجمة لحياته الباطنية ، ويصدق هذا على أبى نواس كما يصدق على سائر الشعراء المطبوعين وهو أصدق ما يكون على خمرياته التى تفيض بدلائل العقدة النفسية ومركب النقص الذى يساوره من اتسابه الى كل من أبويه

فهو يشرب الخمر لأنها شراب الملوك أو الشراب العريق الذى عاش مع أجداد الأكاسرة والقيصرة وقبل مدار النجوم

تحيرت والنجوم وقف لم يتمكن بها المدار

وهو يستريح الى شربها حيث لا فخر بالآباء والأجداد بين الندامى الذين يهابونه ويتذللون بين يديه

واذا أنادم عصبة عربية بدرت الى ذكر الفخار تميم

وبنو الأعاجم لا أحاذر منهم شرا فمنطق شربهم مذموم

وجميعهم لى حين أقعد بينهم بتذلل وتهيب موسوم

وجنونه المتسلط عليه أن يفتتح كل خمرية أو يتخللها بالنمى على الطلول والرسوم ومن يذكر الطلول والرسوم ، ومن ذاك مالا نحصيه :

لتلك أبكى ولا أبكى لمنزلة كانت تحل بها هند وأسماء

حاشا لدرة أن تبني الخيام لها وأن تروح عليها الابل والنساء

له بكيت كما يبكى النوى رجل على المعالم والاطلال بكاء

ومنه :

أعرض عن الربيع ان مررت به واشرب من الخمر أنت أصفها

ومنه :

أيا باكى الاطلال غيرها البلى بكيت بعين لا يجف لها غرب^(١)

(١) غرب : الدمع حين يخرج من العين .

ومنه :

دع الاطلال تسقيها الجنوب
 واخل لراكب الوجناء^(١) أرضا
 ولا تأخذ عن الاعراب أرضا
 فأين البدو من ايوان كسرى
 وتبكي عهد جدتها الخطوب
 تحت بها النجبية والنجيب
 ولا عيشا فميشهم جديب
 وأين من الميادين الدروب

ومنه :

دع الربع ما للربع فيك نصيب
 ولكن سبتنى البابية أنها
 وما أن سبتنى زينب وكعوب
 لمثلنى وان طال الزمان سلوب

ومنه :

عد عن رسم وعن كتب^(٢)
 واله عنه يابنة العنب

ومنه :

يا أيها العاذل دع ملححاتى
 والوصف للمومة^(٣) والفلاة

ومنه :

سقىا لغير العلياء فالسند
 وغير اطلال مى بالجرد

ومنه :

لا تبك رسما بجانب السند
 ولا تجد للدموع بالجرد

وبيت القصيد من هذا الهوس بالنمى على الرسوم والطلول انما هو
 الازدراء بأهلها وبعيشهم وفخارهم الذى عز عليه أن يجاريهم فيه ، والأشادة
 بالخير التى لا يدرك الكفاءة لها كل شارب ، ولا يسمو الشاربون لها
 الى مثل شمائل أبى نواس

عاج الشقى على رسم يسائله
 ويكى على طلل الماضين من أسد
 وعجت أسأل عن خسارة البلد
 لادر درك قل لى من بنو أسد ؟
 ومن تميم ومن قيس ولقهما ؟
 ليس الأعراب عند الله من أحد
 نعم كل الأعراب من شمال أو جنوب ، وما يفخرون به من حسب
 حسيب وعيش جديب !

وأحيانا ينقل هذه النفرة من مفاخر القبائل والأنساب الى لسان الخمار

(١) الوجناء : الناقة الشديدة الصلبة . (٢) كتب : جمع كتيب وهو
 التل من الرمل . (٣) المومة : الفلاة الواسعة .

الذى يقصد اليه :

فقلت له ما الاسم قال سموأل على أثنى أكنى بعمرى ولا عمرا
وما شرفتني كنية عربية ولا ألبستني لا ثناء ولا فخرا
لا جرم تصبح المنادمة قرابة تغنى عن قرابة النسب بين أناس لا يتفاخرون
ولا يتعاضمون :

فذلك ما حيت له واني أبر بمثله من والديه
ورابعها فللندمان حق سوى حق القرابة والجوار

ولم يخف على أحد من أبناء عصره ما كان يعنيه بالانحاء على الطلول
وباللجاجة في هذا الانحاء ، ولم يكن هو يخفى مقصده منه وهو يتبعه
بالانحاء على الاعراب من كل قبيل ، ويقابل بين الخيام واىوان كسرى ،
وبين الدروب والميادين ، فلهذا نهاه الخليفة عن الاستمرار في هذه
اللجاجة وأمره بوصف الطلول فقال :

دعاني الى وصف الطلول مسلط لقد ضقت ذرعا أن أجوز له أمرا
فليس اللهج بالنمى على الطلول دعوة الى الجديد كما يتراءى من النظرة
السطحية الى ظاهر العبارة . ولم يأمره الخليفة بالكف عنه لأنه تجديد
ينكره ، ولكنه فهمه على معناه الذى لا يفهم على سواء من هذا التهوس
بتحقيق الاطلاع وأهل الاطلاع ، وخشى منه مغبته بين القبائل المتحفزة في
تلك الآونة ، فنهاء عنه نهيا عن هجاء سياسى لا تحمد عقباه ..

وبعد فهل كان أبو نواس يتجنب بكاء الاطلاع ايشارا للتجديد أو
ايشارا لمذهب كائنا ما كان من المذاهب الفنية ؟ كلا . فانه لم يدع الى
تجنبها الا ليستطرد من ذلك الى النمى على أهلها ومفاخر أنسابها .. والا
فمطالعه في بكاء الاطلاع والديار تزيد على مطالع الشعراء من معاصريه
أو المتقدمين عليه ، وهذه بعض تلك المطالع المتكررة
قال في أحدها :

هل عرفت الربيع أجلى أهله عنه فزالا

وقال في مطلع آخر :
 ألا حي أطلال الرسوم الطواسم^(١) غفت غير صقع كالحمام جوائما
 وفي مطلع آخر :
 لمن طلل لم أشجبه وشجاني وهاج الهوى أو هاجه لأوان
 وفي مطلع آخر :
 ألا أرى مثلي أمترى^(٢) اليوم في رسم تعرفه عيني ويلفظسه وهمي
 وفي مطلع آخر :
 لمن الديار تسربت بيلها نسيك ربها وما تنساها
 وفي مطلع آخر :
 هل لديار حيتها درس من صمم ما هتفت أو خرس
 وفي مطلع آخر :
 غننا بالطلول كيف بلينا واسقنا نعطك الثناء الشينا
 وفي مطلع آخر :
 ألا حي أطلالا بسيحان فالعذب الى برع فالبر بئر أبي زغب
 وفي مطلع آخر :
 ألم تربع على الطلل الطماس^(٣) غفاه كل سحج^(٤) ذى ارتجاس ؟
 فالأطلال لا تهمة اذن الا ليستطرد منها الى عقدته والى التنفيس عنها
 بالخرم كلما برمت بمفاخر النسب من تميم ومن قيس ومن أسد .. وليس
 الاغريب جميعا عند الله من أحد
 ومنادمة الخمر هي « الوجاهة » التي يسمو بها الشاعر على النظراء
 وهي التي تنفث فيه الزهو والفخار بدلا من زهو السادة الاصلاء وفخار
 الأبناء والآباء ..

نوبات السامة

وثمة خلة أخرى من خلال الطبيعة النرجسية تعرضها لادمان الخمر وما
 اليها من عقاقير التخدير ، وتلك هي نوبات السامة التي تغاود النرجسي

(١) الطواسم : المدروسة المنطوسة • (٢) امترى : شك • (٣) الطماس :
 المدرس الذي أمحق اثره • (٤) سحج : أسود •

كلما خلا الى نفسه وفرغ من العمل ، ان كان له عمل يشغله

فالوقت ثقيل على الطبيعة الرجسية تدفمه بكل ماتستطيع من الشواغل والملاهي ، وعواطفها الموكلة بشيء واحد — وهو عشق الذات — لاتزال أبدا في حاجة ملحة الى التنبيه والاستشارة

وقد يتصف الرجسى بدقة الحس أو رقة العاطفة وخفة الشعور ولكنه محروم من تلك الدوافع الحيوية المتدفقة وتلك الطبائع المميقة التي تستجيش النفس أبدا بما يشغلها ويجدد نشاطها ويوثق روابطها بالعالم وما فيه . فاذا ترك الرجسى لنفسه لم يجد فيها ما يملأ فراغه كله ولم يزل متمسكا للفرجة والتسلية والنشوة التي تلهيه وترضيه عن ذاته وتجدد لها أشواقها فيما يعنيه من فتنها وغوايتها

ومن ثم يتسرب حب الخمر الى الطبائع الرجسية ، فاذا إغاتها بواعث أخرى من غواية الطبع أو البيئة تمادى بها حب الخمر الى الادمان والاصرار عليه ..

ويلاحظ في خمريات أبي نواس هذا الولع بكل ماينبه الشعور ويدفع السآمة ويوقع في خلده أنه مشغول بما يشغل ويشير . فهو مع السكر والسماع لاينسى أن يمثل لنا مخافة صاحب الحان وذعره واتباهه من النوم في وجل وريبة ، ويوشك أن يكون وصف الخوف ملازما لكل قصة من قصص السعى الى الحائات والبحث عن الجيد النفيس من الشراب . فيعجبه أن يرى الساقى بين الخوف والرجاء حيث يقول :

لما قرعت عليه الباب أوجله وقال بين مسر الخوف والراجي

أو فزعا شديد الفزع كما قال :

فقام لدعوتي فزعا مروعا وأسرع نحو اشغال الذبال^(١)

أو مبتلئا ذعرا كما قال :

فلما قرعنا بابه هب خائفا وبادر نحو الباب مبتلئا ذعرا

ومثله قوله :

فقام الى مذعورا يلبي وجون الليل مثل الطيلسان^(٢)

(١) الذبال : فتيل الصباح • (٢) جون : أسود •

ومثله :

(١)

ففزع من ادلاجنا بعد هجمة
وليس سوى ذى الكبرياء رقيب
تناوم خوفا أن تكون سعاية
وعاوده بعد الرقاد وجيب^(٢)

ومثله :

(٢)

يارب صاحب حانة قد رعته فبعثته من نومة المتزمل^(٣)
وهكذا يروقه أن تستثيره الخمر وهو يسعى اليها وتستجيشه وهو
يشربها ويستمتع الى ندمائها
وما هو غاية الحرمان عنده ؟ وما هو عقاب البخل على الخمرة بالمال ؟
انه لاشئ غير الشعور بطول الوقت وثقله الملل حتى تكون الساعة
كالحين ..

وأصرفنها عن بخیل دان بالامساك دينا
طول الدهر عليه فيرى الساعة حيناً

ولهذا نرى الشاعر يستريح الى كر الأيام بأسمائها في شعره كما
يستريح المسافر الملول الى عدد الفراسخ والمراحل التي خلفها وراءه ،
وكثيرا ما لفظ قرائه بما أراده من احصاء هذه الأيام ولا مراد له غير
السرور بقواتها وعددها وهي تنقضي وتنصرم وهو يشعر بعدها «بالوجهة
الترجسية» لأنه لم يكن كذلك البخیل الذى طول الدهر عليه

ومن كلامه فى هذا الغرض ذلك البيت المشهور :

أقمنا بها يوما ويومين بعده ويوما له يوم الترحل خامس
ومنه :

ترك المرء اذا ما ذاقها يرخى الازارا
ويرى الجمعة كالسبت وكالليل النهارا

ومنه :

(١) ادلاجنا : أدلج القوم : سروا من أول الليل . (٢) وجيب : خفقان القلب . (٣) المتزمل : تزلزل الرجل بشوبه تلقف به وتدثر .

فلم نزل في صباح السبت نأخذها
والليل أجمعه حتى بدا الاحد
ثم ابتدأنا الطلا^(١) باللهو من أمم
في نعمة غاب عنها الضيق والتكد
حتى بدت غرة الاثنين واضحة
والسعد معترض ، والطالع الاسد
وفي الثلاثاء أعملنا المطي بها
صهباء ما فرغتها بالمزاج يد
والأربعاء كسرنا حد سورتها
والكأس يضحك في تيجانها الزبد
ثم الخميس وصلناه بليته
قصفا وتم لنا بالجمعة العدد

ويلحق بهذا طي الشهر والشهرين بين حانات القفص وقطربل كما حدثوا
في بعض خمرياته أنه أقام بقطربل من أول يوم في رجب الى آخر يوم في
شعبان ثم عاد ليشرّب قبل أن تثبت رؤية الهلال ، ونسبوا اليه أنه قال :
لو شئت لم نبرح من القفص نأخذها صفراء كالجص^(٢)

نسرق هذا اليوم من شهرنا فربما يعفى عن اللص
فهذا الملل وذاك الفتور من مغرياته بالشراب وادمان المعاقرة : إلا أنه
ادمان حسي لا يلزم منه أن يتهوس صاحبه بالخمر ذلك التهوس الذي ينم
على العقد النفسية ويلعج فريسته كأنما يركبها الشيطان فلا يدعها أو
يوردها المورد الذي يبغيه

وينبغي ألا تنسى في معرض المغريات التي سولت لأبي نواس ادمان
الشراب باعثا قويا نظنه احدى هذه المغريات ظن الاحتمال والترجيح ،
وذاك هو سوء العيش ونقص الغذاء واقتنار الجسم الى الحركة والتنبيه .
فإن أبا نواس قد عاش في ضنك وفاقة معظم أيامه على غير مايتوهم
المتوهمون ، وكان يسمى نفسه العاشق المفلس في بعض شعره ، ويبالغ

(١) الطلا : بالكسر : اللذة . (٢) الجص : بالكسر ما تطلّى به البيوت
من الكلس .

فبما أنفقته على الخمر أحيانا فيروى لنا أنه أنفق عليها الثمانين دينارا التى عاد بها من مصر ممثلى^(١) الوطاب^(٢) بجوائز الخصيب ، وما فى كل يوم يمتلىء الوطاب هذا الامتلاء ! فاذا كانت جوائز الخصيب التى كاثرت بها المكاثرون لم تخلف عليه الا هذه الدنانير الثمانين فما الظن بأيامه الأخرى التى تفرقت بين السجن والاقصاء وتبدل السادات والأولياء ؟ تلك حال لا يستبعد على صاحبها أن يحوجه سوء الغذاء الى استفزاز البنية بالكحل وما اليه ، كأنه بديل من الفخر بالآباء ، وبديل من السأمة والخواء

ونرجع الى المقابلة بين أبى نواس وأوسكار وايلد فى هذه الخلّة ، خلّة الادمان ، تطبيقا لما أسلفناه من أن الاختلاف بينهما يثبت المشابهة كما يثبتها الوفاق ..

فالشاعر الأيرلندى لا يشكو من عقدة النسب لأنه من سلالة النبلاء ، ولا يشكو من سوء الغذاء لأنه من الأغنياء ، ولا يدفع السأمة بالخمر وحدها لأنه مقتدر على السياحة والتردد على المقاصف والملاهى والتشاغل بإقامة المآدب وحضورها عند من يدعوّه إليها ، وليس من همه أن يتحدى الناس بالشراب ، لأن بيئة عصره لم تكن كذلك البيئة التى كان أبو نواس يتحداها حين يقول :

ألا فاسقنى خمرًا وقل لى هى الخمر

ولا تسقنى سرا اذا أمكن الجهر

ولهذا اختلف النرجسيان فى أمر الادمان ، فكان اختلافهما أدل على الآفة المشتركة بينهما من الوفاق .

(١) الوطاب : جمع وطب بالفتح جلد الماعز يجعل فيه اللبن .

طبيعته الفنية

الضن وأبونواس

أحق الشعر النواسى بالدراسة النفسية — بعد الخمریات — هو شعره فى الغزلیات والنسکیات ، ولكن البحث النفسى يتقاضانا قبل ذلك أن نتكلم عن طبيعة فنه على الجملة ، فإنا إذا فهمنا طبیعته الفنية لم نجد صعوبة فى فهم عاطفة الحب ونوازع العقيدة كما عبر عنها بقصائد الغزل أو القصائد الدينية ..

وصفوة ما يقال فى طبیعة فنه أنه ظاهرة من ظواهر العرض الذى أشرت^(١) عليه الطبیعة النرجسية ، وإذا كان الكلام عن شاعر فالعرض النرجسى والعرض الفنى تعیران مترادفان

یواجهنا الشعر النواسى بالغاز لاتفهم حیث تتلاقى الزندقة بالنسك ويتلاحق غزل المؤنث وغزل المذكر ويمتزج الهزل والجبد ، ولكننا إذا أدخلنا فى حسابنا طبیعة العرض النرجسى ومشتقاته ولوازمه لم یبق من هذه النقائص لغز يستعصى على الفهم ، وأصبحت هذه الالغاز فى كثير من المناسبات وهى المفتاح الحاضر الذى یحل كل اشكال

فالعرض الفنى هو قوام شعر أبى نواس ، لایهمه أن یتغزل أو یرثى أو ینظم فى النسك والحكمة ، وإنما یهمه أن « یعرض » من طویته « دورا مسرحیا » یلفت النظر ، وكل عروضه الفنية هى مسرحیات تتميز بالموضوع ولكنها تتساوى فى صبغة واحدة : هى صبغة التمثیل

ولا نقصد بهذا أن شعره خلو من الشعور ، بل نقصد به أن العرض هو الباعث الأول علیه ، وما عدا ذلك من شعور واقعى أو شعور فنى فهو تابع من توابع الباعث الأصل

(١) أشرت : أشرح الخریطة أدخل بعض عراها ببعض . وأشرح الثوب خاطه خیاطة متباعدة .

ولا يغيب عن بالنا أن الممثل المقتدر في فنه يستوحى شعور الدور الذي يمثله من سليلته وخياله ، ولا يغيب عن بالنا الى جانب ذلك أن « التشخيص » Identification فطرة في النفس النرجسية يبلغ من غلبتها على الحس أن يخلق الانسان شخصيته على كائن غيره ، وهو لا يشعر بذلك كل الشعور في صميم وعيه . فليس من العسير على الفطرة الفنية المطبوعة على التشخيص أن تستوحى الشعور الذي يلائم عملها الفني وتودعه قالب الكلام المطبوع فاذا هو مطبوع نظم هذه الأبيات في رثاء خلف الأحمر :

لما رأيت انفسون آخذة	كل شديد ، وكل ذى ضعف
بت أعزى النفسؤاد عن خلف	وبات دمي ان لا يقف يكف
أنسى الرزايا ميت فجعت به	أمسى رهين التراب في جدف (١)
وكان ممن مضى لنا خلفا	فليس منه اذ بان من خلف

ولم يكن خلف الأحمر قد مات حين نظمها ، وسواء كان نظمها مستجيبا لاقتراح خلف على الشعراء أصحابه ، أو كان نظمها بغير اقتراح منه فأبو نواس هو الشاعر الوحيد الذي رويت له مرثاة لخلف الأحمر في حياته ، وبقية القصة في بعض الروايات جديرة بالشاعر في عبثه وسخريته ، فان خلفا على ما قيل قد استحسّن أبيات الرثاء فقال له تلميذه الهازل : يا أبا محرز ائت ولك عندي خير منها ، فقال خلف : كأنك قد قصرت ؟ قال : لا . ولكن أين باعث الحزن ؟

وندع الرثاء وهو معلق بفقيد يموت ، وننظر في شعر النسك الذي لا يتوقف النظم فيه على غير النظم ، فانما كان يطرق هذا الباب أو يدعه كأنه دور من أدوار التمثيل يأخذ منها ما يأخذ ويوزع منها بين زملائه ما يحبونه وما يكرهون أن ينافسهم عليه

قال أبو مخلد الطائي : جاء أبو العتاهة الى عندي فقال لي : ان أبا نواس لا يخالفك ، وقد أحببت أن تسأله ألا يقول في الزهد شيئا ، فاني

(١) اي قبر

قد تركت له المديح والهجاء والخمر والرقيق وما فيه الشعراء ، ولزهد شوقي ... فبعثت الى أبي نواس فجاء الى وأخذنا في شأنا ، وأبو العتاهية لا يشرب النبيذ معنا ، فقلت لأبي نواس : ان أبا اسحاق من قد عرفت في جلالته وتقدمه ، وقد أحب أنك لا تقول في الزهد شيئا ... فوجم أبو نواس عند ذلك وقال : يا أبا مخطد ! قطعت على ما كنت أحب أن أبلغه من هذا ، ولقد كنت على عزم أن أقول فيه ما يتوب به كل خليع . وقد فعلت ولا أخالف أبا اسحاق فيما رغب فيه !

فمعارض الشعر اذن في عرفه وعرف زميله أبي العتاهية أدوار توزع على حسب الحاجة الى العرض القنى لا على حسب البواعث الصادقة من الهام السريرة ... وليس مما يفوت الناقد في هذه القصة ان أبا العتاهية كان أثيرا عند أبي نواس وأنه دون غيره من معاصريه كان لديه في مقام التوقير والاستجابة للرجاء ، وتلك احدى العلامات على عصبية الانحراف التي تقرب بين المنحرفين كأنها من وشائج اللحم والدم ، وقد كانت هذه العصبية على أشدها بين الشاعرين وكانت القرابة بينهما في هوس الانحراف أشد من قرابة النسب المدخول ، ولو كان في المقام متسع للبحث في دخيلة أبي العتاهية لفصلنا هنا أخباره ودلائل أطواره ، ولكن قصة واحدة من قصصه تصور لنا هذه الطبيعة المضطربة بين المجون والنسك فتبدو لنا من بعض جوانبها كأنها ملامح مكبرة مؤكدة من أبي نواس ، فهما زميلان في أكثر من زمالة ، وهذه القصة ترينا أن أبا نواس كان على حق حين قيل من أبي العتاهية أن يستأثر دونه بالزهديات

حدث مخارق المعنى قال : جاءني أبو العتاهية فقال : قد عزمت على أن أتزود منك يوما تهبه لى ، فستى تنشيط ؟ فقلت : متى شئت . فقال : أخاف أن يقطع بى . فقلت : والله لا فعلت وإن طلبنى الخليفة . فقال : يكون ذلك في غد ... فلما كان من غد باكرنى رسوله فجئته فأدخلنى بيتا له نظيفا فيه فرش نظيف . ثم دعا بمائدة عليها خبز سميد وخل وبقل وملح وجدى مشوى ، فأكلنا منه ، ثم دعا بسمك مشوى فأصبنا منه حتى

اكتفينا ثم دعا بخلواء فأصبنا منها وغسلنا أيدينا ، وجاءونا بفساحمة
وريحان وألوان من الأنبذة فقال : اختر ما يصلح لك منها ، فاخترت
وشربت ، وصب قدحا ثم قال : غنى في قولى :
.. أحد قال لى ولم يدر ما بى ..

فغنيتها فشرب قدحا وهو يبكى أحر بكاء ، ثم قال : غنى في قولى :
ليس لمن ليست له حيلة ميسورة خير من الصبر
فغنيتها وهو يبكى وينشج ، ثم شرب قدحا آخر ثم قال : غنى فديتك
في قولى :

خليلى مالى لا تزال مضرتى تكون من الأقدار ختما من الحتم
فغنيتها اياه ..

وما زال يقترح على كل صوت غنى به فى شعره فأغنيه ويشرب ويبكى
حتى صارت العتمة - فقال : « أحب أن تصبر حتى ترى ما أصنع ،
فجلست . فأمر ابنه وغلّامه فكسر كل ما بين أيدينا من النبيذ وآلته
والملاهى ، ثم أمر باخراج كل ما فى بيته من النبيذ وآلته فأخرج جميعه فما
زال يكسره ويصب النبيذ وهو يبكى حتى لم يبق من ذلك شيء . ثم
نزع ثيابه واغتسل ، ثم لبس ثيابا بيضا من صوف ، ثم عانقنى وبكى ، ثم
قال : « السلام عليك يا حبيبى وفرحى من الناس كلهم ، سلام الفراق
الذى لا لقاء بعده » وجعل يبكى ويقول : « هذا آخر العهد بك فى
حالة تعاشر أهل الدنيا » فظننت أنها بعض حماقاته وانصرفت وما لقيتها
زمانا . ثم تشوقته فأتيته فاستأذنت عليه فأذن لى ، فدخلت فاذا هو قد أخذ
قوصرتين - أى وعائين من قصب - وثقب احدهما وأدخل رأسه ويديه
فيها وأقامها مقام القميص ، وثقب الأخرى وأخرج رجله منها وأقامها
مقام السراويل .. فلما رأيته نسيت كل ما كان عندى من الغم عليه
والوحشة لعشرته وضحكت والله ضحكا ماضحت مثله قط . فقال :
« من أى شيء تضحك ؟ » فقلت : « سخن الله عينك ؟ هذا أى شيء هو ؟
من بلغك عنه أنه فعل مثل هذا من الأنبياء والزهاد والصحابه أو المجانين ؟ !

انزع عنك هذا ياسخين العين « فكأنما استحى منى ، ثم بلغنى انه جلس حجاما فجهدت أن أراه بتلك الحال فلم أراه ، ثم مرض فبلغنى انه اشتفى أن أغنيه فأتيته عائدا فخرج الى رسوله يقول : « ان دخلت الى جددت لى حزنا وتأقت نفسى من سماعك الى ما قد غابتها عليه ، وأنا استودعك الله وأعتذر اليك من ترك الالتقاء . ثم كان آخر عهدي به »

وهذه القصة التى قصها علينا مخارق تمثل لنا نسخة من نسخ العرض المضطرب بين المجنون والنسك وترينا وشيجة من وشائج القرابة فى الانحراف بين نفس أبى العتاهية ونفس أبى نواس ، وسرى فيما بعد أن القرابة بينهما أوثق من ذلك ولا سيما فى باب النسك والتوبة وأن الحكمة التى تقول لنا ان الجنون فنون أعرق وأصدق مما أراد القائلون

وبديه أن أبى نواس لم تكن به حاجة الى طبيعة العرض فى معظم الأبواب التى قال أبو العتاهية أنه ترك النظم فيها كالمديح والهجاء وما فيه الشعراء ، فهذه الأبواب قد اصطلاح الناس جميعا على بدايتها وفهموا انها تدور على العطاء والمنح والمودة والجفاء فلا حاجة للشاعر الى خلق أسبابها من عنده ، ولكن بابا من الأبواب تركه أبو العتاهية وأكثر أبو نواس من النظم فيه قد كان يصدر منه عن طبيعة العرض ولا تدعوه اليه حاجة الشاعر الى الكسب أو الى التسليح بالمدح والهجاء لترغيب الأصدقاء وترهيب الأعداء ، وذلك الباب هو باب الطرد ووصف الصيد فكل بواعثه عند أبى نواس فانما هى من قبيل العرض الفنى بغير مشاركة من البواعث « المعيشية » المصطلح عليها بين معاصريها

ولا يعتمد الناقد على تحليل قصائد الطرد بطبيعة العرض لو كان أبو نواس من هواة الصيد فى غير صحبة يجارىها كما يجارى كل صحبة

وانما يكون الشعر من « العرض الفنى » حين يكون مداره على الصورة والحكاية وهكذا كان شعر أبى نواس فى قصائده الطردية على الاجمال ، فانه وإن صاحب الصيادين على ما يظهر من بعض شعره ، لم يؤثر عنه انه كان يحب الطرد والصيد ذلك الحب الغلاب وانما نظم فيه

ليمرض قدرته على النظم في هذا الباب ، فاختار أكثر طردياته من الرجز وهو وزنه التقليدى عند الشعراء ، واصطنع فيه الغريب ليحكى أمام الرجاز رؤية بن المعجاج وهو مشهور بكثرة غريبه في أراجيزه ... فكل ما في هذا الباب « عرض فني » تنحصر بواعثه في هذه الرغبة ولا تعبر عن باعث نفسى غير هذا الباعث ، ومن اتقان العرض انه كان يتخير القوافى الفخمة المسيرة كالطاء والظاء ومن أمثلتها قوله في وصف كلب :

أنت كلبا جال في رباطه	جول مصاب فر من اسعاطه (١)
عند طبيب خاف من سياطه	هجنأ به وهاج من نشاطه
كالكوكب الدزى في انخراطه	عند تهاوى الشد وانبطاطه
يقم القائد في حطاطه	وقده البيداء في اعتباطه (٢)
لما رأى العلهب في أقواطه	سابعه وقر في التباطه (٣)
كالبرق يذرى المرو بالتقاطه	مثل قلى طار في انقاطه (٤)
وانصاع يتلو على قطاطه (٥)	أغضف لا يئأس من خلاطه

الى آخر الأرجوزة على هذا المثال

ومن هذا الباب على حرف الظاء :

أعددت كلبا للطراد فظا	إذا غدا من نهم تلظى
وجاذب المقود واستلظا	كأن شيطانا له أظا
يكظ أسراب الظباء كظا	حتى تراها فرقا تشظى
يجوز منها كل يوم حظا	حتى ترى جميعها مفتظا

(أى مقتضا معتصرا)

وقس على ذلك سائر طردياته وهى من أجود منظوماته ، وبواعثها كلها ما علمنا من حب العرض الفنى المتمكن من خليقته من ناحية الطبيعة النرجسية والهبة الفنية ، فلولا أن رؤيه قد أغرب في رجزه ، ولولا أن

(١) أى جول مجنون يعالج بالسموط فر من الطبيب المعالج
(٢) أى يصرع القائد ويمتيط الأرض كما تمتيطها الريح أى تقشرها
(٣) العلهب نور الوحش ، والاقواط القطعان ، والانباط الجرى السريع
(٤) أى ينفذ الحجارة كما تطير الفتات من القلابة
(٥) على قطاطه أى على مثاله والافضف الذى أذنأ الى انواء

الطرد ينظم في الرجز ، ولولا أن أبا نواس قد حفظ الغريب وأحب أن يعرضه فلم يجد لعرضه بابا غير هذا الباب ، لما الح على هذا الباب ينظم فيه ويعيد النظم على السهل والصعب من قوافيه

وقد أجمع مؤرخو الأدب لعصر أبي نواس على سعة علمه بالغريب وأغرق بعضهم في توسعة نصيبه من العلم به حتى زعم أنه لم ينظم الشعر الا بعد أن حفظ ألف أرجوزة ثم أمره استاذة خلف الأحمر بنسيانها . وأغرق هو في مثل هذه المبالغة فقال انه لم ينظم الشعر الا بعد أن روى لأكثر من ستين شاعرة وناهيك عن الشعراء الفحول . فاذا تركنا جانب الاغراق من هذه الأقاويل فالذى يبقى ثابتا لا مبالغة فيه أنه كان وافر العلم بالغريب والأراجيز وأنه احتاج الى العرض في هذا الباب لأنه كان في شعره كله سهلا قليل الاغراب لا يطرق انحوشى من الألفاظ الا في الندرة النادرة . ولا بد هنا من ملاحظتين على تقليد أبي نواس للأقدمين حين يكون هذا التقليد سبيلا للعرض ولقت النظر فأولى هاتين الملاحظتين أنه كان حريصا على محاكاة الأعراب في أسلوبه ونسى هنا الأزراء على جفاء الأعراب ولأن العرض في باب الطرد لا يتأتى له مع نبذ جفاء الأعراب . والملاحظة الثانية أنه اجتنب التصرف في مطالع الأراجيز فهي تحكى مطالع الأقدمين في هذا الباب ومنها تكراره « أنمت كلبا » و « قد اغتدى » و « يارب » و « لما » .. وكلها مما تفتح به الأراجيز وهو يحافظ عليها حتى حين يترك الأرجوزة الى ما يشبهها من المجزوءات كما قال :

ربما أغدو مع كلبى طالبا للصيد فى صحبى

ثم يعود فى هذا الوزن الخفيف الى الاغراب فى الغريب فيقول :

فسمونا للحزيز به (١) فدفعناه على أظب

فاستدرته فدر لها يلطم الرقيقين بالترب

فادراها وهى لاهية وجحيم الحاذ والغرب (٢)

(١) الحزيز : الأرض الفليطة
(٢) الحاذ ما يحاذيك من الجنبين والغرب والظهر

فقرى جماعهن كما	قد مظلولان من عصب
غير يغفور أهاب به	جاب دفيه عن القلب (١)
ضم لحبيبه بمخطمه	ضمك الكسرين بالشعب
واتتهى للباهيات كما كسر	ت فتحاء عن (٢) لهب
فتعاى التيس حين كبا	ودنا فوه من العجب (٣)
ظل بالوعساء (٤) ينفذه	أزما منه على الصلب
تلك لذاتى وكنت فتى	لم أقبل من لذة حبي

وقد غير هنا البحر ولم يستطع أن ينزع عن لوازم العرض في باب الطرد وهى الاغراب في اللفظ . فملا هذا البحر المستخف بالجلاميد الجافية من مفردات اللغة الوعرة لأن الغرض الأكبر هو اظهار القدرة على الاغراب ومحاكاة الاغراب ..

فالشاعر على هذا ماض مع طبيعة العرض تملى عليه هذه الطبيعة أن ينعى على الأطلال فينماها وتملى عليه أن يحذو حذو الأقدمين فيبالغ في محاكاتهم ويتنزع من درايته باللغة شملة بدوية لا ملائمة بينها وبين أسلوبه حيث يلبس للحضر لبوسه ويناجى أبناءه وبناته بسا يأنسون من لغة الأندية ومجالس اللذات ..

وقد سئل الشاعر عن جيده ورديته فقال : اذا أردت أن أجد قلت مثل قصيدى : « أيها المنتاب من غفره » واذا أردت العبث قلت مثل قصيدى : « طاب الهوى لعميده » .. فأما الذى أغنى فيه وحدى وكله جد « فاذا وصفت الخمر »

وهذه رواية تشككنا في صحتها أو تشككنا في صواب أبى نواس حين يحكم على شعره . فان قصيدته : « طاب الهوى لعميده » ليست من شعره الردىء على كثرة الردىء منه . ولكن الصواب — لو كان أبو نواس ينفذ

(١) اليه غفور الذى يلون العفار والدف الحجب
(٢) الفتحاء العفساب واللهما بين الجيلين من حاوية
(٣) العجب آخر العود الفقى
(٤) الوعساء رأبية من رمل

الى دخيلة طبعه - أن يقول : انه يجيد حين يجمع قريحته للعرض الفنى ،
ويسف ويهبط حين ينسى العرض ويترك قريحته فى مبادلها !

على أن النرجسية قد استوفت نصيبها من كل مسماها فليس التهافت
على العرض كل مايجنيه الفنان من الطبيعة النرجسية ، وليس بالنادر أن
يستفيد منها نفخة من لطافة الحدس وشفافية الحس تلهمه الخواطر التى
تدق على الطبيعة الخشنة . وهذه المزية لم يحرمها أبو نواس ، فأفادته
زكاة فى كثير من طرائفه كأنها زكاة تلك اللغة الموحية التى كان يتفاهم
بها مع أودائه ويعنيها بقوله :

أزور محمدا فاذا التقينا تكلمت الضمائر فى الصدور
فأرجع لم ألمه ولم يلمنى وقد رضى الضمير عن الضمير
أمر ليس يعرفها سوا أنا يحير لطفها بصر البصير
أو يعنيها بقوله :

تجمع عيني وعينها لغة مخالف لفظها لمعناها
إذا اقتضاها طرفي لها عدة عرفت مردودها بفحواها
فإن لم تكن طرائفه كلها من وحى هذه اللغة فمن وحيا ولا شك قسط
غير يسير ..

غزل المونث والمذكر

الحب والغزل

قال أبو نواس في جنان :

ما هوى إلا له سبب
فتت قلبي محببة
خليت والحسن تأخذه
فاكتست منه طرائفه
فهى لو صيرت فيه لها
صار جدا ما لعبت به
يبتدى منه وينشعب
وجهها بالحسن منتقب
تنتقى منه وتنتخب
واسنزادت بعض ما تهب
عودة لم يثنها أرب (١)
رب جد جره اللعب

وقال في عريب :

صيرنى عبدا لها مذعنا
لو وعدتنى موعدا صادقا
ظننت أنى نلت ما لم ينل
وقال :

جف من عيني كاد يس
وفؤادى لحر جب
خبرينى فذاك نفس
كان ميعادا خرو
أنت من قتل عائد
وقال في دنائير :

صليت من جهها نارين واحدة
بين الضلوع وأخرى بين أحشائي

(١) أى أنها اختارت فلم تبق ما يختار إذا عادت إلى المحاسن لتأخذ منها غير ما عندما

وقد حميت لساني أن أبين به
يا ويح أهلي أبلى بين أعينهم
لو كان زهدك في الدنيا كزهدك في

وقال في حسن :

طفلة ^(١) خود ^(٢) رداح ^(٣)
قدما أحسن قد
ما براها الله الا
تنشر الدر اذا غد
وترى للعمود زهوا
ربما أغضيت عنها
هي هي ومناي

هام قلبي بهواها
فاسألوا من قد رآها
فتنة حين براها
ت علينا شفتها
حين تحويه يداها
بصري خوف سناها
ليتني كنت منساها

وقال في عنان :

لولا حذارى من جنان
وركبت ما أهوى ولم
وخرجت أخبط سادرا
قد ذبت غير حشاشة
يا من يلوم على الصبا
لم تلق من حر الهوى
اني ترد على قلبه
قلبا اذا كلفته
قد خضت في لجج الهوى
ومضت مضات بالعب
راضعتن من الصبا
أقبلن من باب الرضا
يحفن أحور كالغزا
يمشي بردف كالنقا

لخلعت عن رأسي عناني
أحفل مقالة من نهاني
لم أغن عن حب الغواني
في النفس تحبها الأمانى
دعنى فشأنك غير شانى
ما قد لقيت على عنان
سا راح في غلق الرهان ؟
غير الذى يهوى عصانى
وشربت صافية الدنان
ير تزلن من غرف الجنان
كأسا عقدن بها لساني
فة كالتسائل الحسان
ل أمرار العنان
يختال تحت قضيب بان

(١) طفلة : الطفلة بفتح الطاء : الرخصة الناعمة . (٢) خود : الشابه
الناعمة . (٣) رداح : الرداح بالفتح المرأة العجاء التامة الخلق .

ه من الهوى ما قد دعاني
والكأس وأغن عن الزمان
تهوى فبكل العيش فان
ان زلت عن دار الهوان

عنك ان كنت عاقلا
ت ان كان غافلا
عام لم تنج قابلا
ذهبت عنك باطلا

ميسان^(١) مبتهج ربيب
في طي مزرهها كتيب
يمشى بأعلاها قضيب
قد شفى حزن مذب
صل كالشرار له لهيب

وكيف ينام من ضمن السقام
وراجعت الصباة والغرام
وفارقت الجزيرة والشاما
سلام مسلم لقي الحماما
اذا برزت تشبهها الفلاما
وتشرب من فتوتها المداما

كشفت عمدا لهم عن به الكلف
لمن تهجى اسمها أو خطه ألف
ما بينكم بعد ذا التبيان مختلف

ولقد أقول لمن دعا
أبلغ هوائك من الغنا
لا يشغلنك غير ما
ودع الهوان لأهله
وقال في جنان :

دع جنانا وجهها
لا تذكر بنفسك المو
أنت ان لم تمت بها ال
رجمت نفسك التي

وقال فيها :

ولقد سبأك منعم
خود يحول وشاحها
واذا تقوم لثانها
فالويل لى ما حل بى ؟
بين الجوانح والمفا
وقال في منية :

أبت عيناى بعدك أن تناما
بكيت من القراق لما ألقى
رجعت الى العراق برغم أنفى
على شط الشام وساكنيه
مذكرة مؤثثة مهارة^(٢)
تعاف الماء والعسل المصفى
وقال موريا أو مصرحا :

لما تكشف عنى أننى كلف
جيم وجدت لها نونين بينهما
يضمه من ثقيف بعض دورهم

(١) ميسان : مختال في مشيته • (٢) مهارة : البقرة الوحشية •

وقال من غزل المذكر :

غزال به فتر وفيه تأث
وأحسن مخلوق وأجمل من مشى
أقول له يوما وقد مضى الهوى
أطلت عذابى فيك يا خير من نشأ
فقال : الما يأن ان تترك الصبا
ومالك يا هذا ؟ ومالى ؟ وماتشا ؟
فقلت له : أقصر عن اللوم سيدي
فمن ذا يطيق الصبر عن مثبه الرشا
أرى لك وجهاً قتت القلب حسنه
به ينجلي كربى وقد ينجلي العشا
أتقتلنى ان قلت انى أحبه
ولاذب لى ان كان فى الناس قد فشا
كمت الهوى حتى أضر بهجتى
وكان الهوى طفلا صغيرا فقد نشأ
فرق لى المولى ففـيزت بموعد
وقال انتظرنى قبل مقتبل العشا

وقال منه :

ومعشوق الشائل والدلال	كقرن الشمس فى قد الغزال
تأزرو بالصلاحه وارتمداها	وسر بل بالكمال وبالجمال
ضيا شمس تفرع فى قضيب	ودعصى نقا ترجرج فى اعتدال ^(١)
له فى خده خال مليح	بنفسى ذاك من خد وخال

وقال :

مستيقظ اللحظ فى أفنان وسنان
قبلت فاه فحيانى بريحان

(١) دعصى : الكشيپ الصغير من الرمل .

مستعبد للاماني حسن منظره
 عف الضمير ولكن لحظه زان
 يا من تألق باريه وصوره
 دعصا من الرمل في غصن من البان

وقال :

وطلبى تقسيم الآجا	ل بين الناس عيناه
وتورى البث والأشجا	ن في القلب ثنياه
وتحكى البدر وقت التم ^(١)	للأعين خـسـداه
تمسالى الله ما أحـ	ن ما صورـه الله
ولو مثل نفس الحـ	ن شخصا ما تعـداه
له آخرة قد أشـ	بهت في الحسن دنيـاه
فلو أنا جـدنا الله	ه يوما لمـدناـه
بنفسى من اذا ما النـ	ى عن عيني واراـه
كفانى أن جنح ^(٢) الليـ	ل يغشاني وأغشاه

وقال :

متنايه بجماله صلف	لا استطاع كلامه تيهـا
للحسن في وجناته بدع	ما أن يمل الدهر قاريها
لو كانت الأشباح تعرفه	أجللنه اجلال باريها
لو تستطيع الأرض لا تقبضت	حتى يكون جميعه فيها

وقال :

أيها الناس ارحموني	وتمشوا الى اليه
كلموه في سكون	لا تشقن عليه
كلموه اليوم يرضى	عن أسير في يديه
لو رأيتم حين يمشى	كاسرا من حاجبيه
في ازار قـد لواه	ثم دلى طرفيه

(١) التـم : بالفتح والكسر : أطول ما يكون من ليالي الشتاء وبدر تم
 ودرامم تم أي : تمام . (٢) جنح : الجنح بالكسر طائفة من الليل وقطعة منه .

قلتم ذا الفتك حقا ليس ما نحن عليه
وقال موريا أو مصرحا :

لكن اذا عيل صبرى ذكرته فى هجائى
عين ولام وميم مليحة النغمات

وقال كذلك :

لم أزل أخلع فى الحب الرسن وفؤادى عند قلبى مرتين
وجفونى ساكبات دمعها والحشا فى حشوه منى الحزن
منذ أبصرت هلالا طالما يتنى بقوام كالغصن
ميمه شف فؤادى فى الهوى وبخاء ، فيه قلبى قيد فتن
وبميم بعدها أقلقنى وبدال سل روحى من بدن

هذه أمثلة متفرقة من غزل أبى نواس فى المؤنث والمذكر ، جمعناها بين
جدها وهزلها ، ومبالغتها واعتدالها ، وجيدها ورديتها ، وعرضناها معا
ليقابل بينها من يشاء كما قابلنا بينها ، فهى على ما نرى سواء فى لبائسها
وقشورها ، لا يجزم الناقد برجحان غزل المؤنث منها على غزل المذكر ولا
برجحان غزل المذكر منها على غزل المؤنث ، وإذا اتفق تفضيل قطعة من
هذا الغزل على قطعة من ذلك الغزل فكما يتفق تفضيل القطعة على الأخرى
فى الغزل الواحد ، أو كما يتفق التفاضل بين كلام الشاعر فى بعض أغراضه
أو فى جميع أغراضه ، فلا يكون الشاعر مجيدا فى كل ما يقول ولو قصر
النظم على بابه الذى فرغ له ولم يستحسن له قول فى غيره ..

وتتشابه الصفات والملامح التى يهواها الشاعر فى معشوقاته ومعشوقيه ،
ويهوى المعشوقة أحيانا لأنها « مذكرة مؤنثة » ويهوى المعشوق أحيانا
لأنه « متفتر وفيه تأنيث .. » فكما يكون من محبيات الأثنى اليه أنها
تشبه الغلام فى بعض أوصافه كذلك يكون من محبيات الغلام اليه أنه
يشبه الأثنى فى بعض الأوصاف

انما جزم بعض النقاد برجحان غزله في المذكر على غزله في المؤنث لأنهم ساقوا أنفسهم اضطرارا الى هذا الترجيح ، وفرضوا فرضهم الاول بغير فهم لحقيقته ثم ألزموا أنفسهم نتائجهم عن اعتساف لا دليل عليه

فرضوا ان الشذوذ الجنسي شيء واحد يستلزم أن يكون الشاذ منحرفا الى هوى أبناء جنسه ، ثم وجدوا أبا نواس يتغزل بالجوارى كما يتغزل بالعلماء ووجب أن يعللوا هذه الغرابة فعللوها بالصدق في أحد الغزلين والكذب في الغزل الآخر ، ولكنهم اذا رجعوا الى الحقيقة لم يجدوا علامة من علامات الصدق عندهم ينفردها بها غزل المذكر أو غزل المؤنث ، سواء نظروا الى التعبير عن الشعور أو نظروا الى الاجادة الفنية ، وهذا على فرض أن الاجادة الفنية شرط من شروط الشعور الطبيعي في أهل الفنون وفي سائر الناس

وتصحیح هذا الخطأ انما يكون بالرجوع الى العلل النفسية كما شرحتها الدراسات الأخيرة ، فأصل الخطأ سوء فهم الشذوذ الجنسي الذي انطوت عليه طبيعة أبي نواس ، فلم يكن شذوذه يستلزم الشغف بأبناء جنسه دون غيرهم ، ولم يكن جنسه هو سويا غير مشترك حتى يظن به أنه يميل الى جنس واحد . وانما كانت له طبيعة جنسية تشبه بكلا الجنسين وتتشكل بهذا الشكل مرة وبذلك الشكل مرة أخرى ، على حسب غوايات الطبيعة الترجسية ، ومن ثم حبه الفتى لأنه كالفتاة وحبه الفتاة لأنها كالفتى ، ونظرته الى الرجولة بعين المرأة في بعض الأحيان

واذا اعتبرنا رجحان الغزل بما يشم عليه من حرارة الشعور فربما توافقت الآراء على أن غزله في جنان أنتم على حرارة الشعور من سائر غزله ، فان لم تتوافق الآراء على ذلك فلا نعرف قصيدة في غزل المذكر يحسبها النقاد راجحة بحرارة الشعور على سائر القصائد الغزلية

والمدار في غزل أبي نواس جميعه على الصورة التي يشخص بها نفسه في ذات معشوقه أو معشوقته على دأب النرجسين ، وقد مر بنا أنه كان يعجبه ممن يتغزل به أن يلثغ بالراء وأن يتشبه بالادباء ، وأن يقتدى به

يوم كان معشوقا في صباه ، ولم تفارقه هذه الخليفة الرجسية حتى بعد أن
كبر واكتهل ، فكان يقول في معشوق ملتج :
قال الوشاة بدت في الخد لحيته

فقلت لا تكثروا ، ما ذاك عائبه
الحسن منه على ما كنت أعهد
والشعر حرز له ممن يطالبه
بهي وأكثر ما كانت محاسنه
أن زال عارضه وأخضر شارب
وصار من كان يلحى في مودته
أن سأل عني وعنه قال صاحبه

وبديه أن النظر في غزل أبي نواس لا محل فيه للكلام على وفاء العشاق
بالمعنى الذي عرفه قراء الادب العربي من أخبار العذريين ، بل لا محل فيه
حتى للتجمل الذي كان يناسب سمت الشعراء الغزليين من أمثال ابن أبي
ربيعه ، فقد كانت بيئة أبي نواس بعيدة عن بساطة البداوة بعيدة عن تجمل
ذوى البيوتات من الفتيان والعقائل ، وكانت بيئته على الأكثر بين الجوارى
والقيان وبين المتعرضين لشعراء المجون من العلماء . وقد زاد عدد
معشوقاته المذكورات في ديوانه على عشر ، منهن جنان ودر ودناير ونبات
وحسن ومنى ومنية وسمجة وعنان ومكنون وعريب وقاتل ، عدا اللاتي
تغزل بهن ولم يذكر اسماءهن ، وكان يبت لوعته لعنان في أبان مناجاته
لجنان ، فيقول :

لولا حذارى من جنان لخلعت عن رأسي عناني

.....

يا من يلوم على الصبا دعني فشأنك غير شأني
لم تلق من حرق الهوى ما قد لقيت على عنان
وتغزل بمثل هذا العدد أو أكثر من المعشوقين ، فلم يحرص على ظاهر
الوفاء فضلا عن مضمره ومكنونه ، ولم يكن عرف البيئة يتطلب منه هذا

المظهر في غزله بالملوث أو غزله بالمذكر ، فما كان الغزل في عرفهم الا تسلية وتزجية فراغ وشغلانا بشرثرة المجالس ووشايات المجتمع ومناوشات الأندية التي يجتمع فيها الشاربون وطلاب السماع والمسمعات أو المسمعون من القيان والمغنين ..

ذلك كان ديدن العصر بجملته .. أما الزيادة من أبي نواس على عرف عصره فهي زيادة الطبيعة الموكلة بالعرض والتشخيص ، وهي زيادة الطبيعة النرجسية التي تجعل العاطفة نحو غيره كالمنقولة أو العارية المستردة ، لأن النرجسي كما تقدم يمثل نفسه في غيره ولا يحب ذلك الغير الا بمقدار الدور الذي يحكيه أو الزى الذي لا يلبث أن يخلعه ، وبخاصة حين يكون النرجسي كأبي نواس « مشترك الجنس » قادرا على تمثل شخصه في الاناث والذكور ، وعلى تمثل نفسه محبوبا للرجال والنساء

ويبدو لنا أن شعره الذي يعلن فيه زهده في المرأة انما كان من اعراض المرأة عنه لا من اعراضه هو عن المرأة ، وأنه كان يشتهي المرأة فلا يستهويها فيدارى خيبته معها ويوهم الناس أنه يتركها باختياره ولا يتركها على الكره منه ..

وكان يعجب الناس أن يتحدثوا بعجائبه وشذوذ طبعه فيجمع المتكلمون عنه على رفضه الزواج ، ولم يصدقوا كل الصدق على ما يظهر من قوله يخاطب ابنة له :

يا بنتي أبشرى بمسيرة مصر

وتمنى وأسرف في الامـانـي

وقوله عن تركها في بيته :

تقول التي عن بيتها خف مركبي

عزيز علينا أن نراك تسير

ولابد من الرجوع بشيء من مبالغات أبي نواس في الولع بالفلمان الى البدعة التي نشأت في زمانه ولم تكن لها سابقة في الأدب العربي قبله ، فلم يسمع عن شاعر من الجاهليين والمخضرمين أنه نظم الشعر غزلا بالمذكر ،

ولم يكن غزل ابن منذر قبيل أبي نواس بقليل على هذا التهتك والمجون الذي فشا حوالى منتصف القرن الثانى وقبل نهايته ، ففي هذه الفترة كان غزل المذكر بدعة يلهج بها من لم يكن من أهل الفسوق والمجانة ، ومن أخبار ابن منظور التى رواها عن أبي نواس انه عشق فتى يسمى جمالا الدارمى وكان لا يشرب الخمر ولا يعشى معارضن الشبهات ، وقد تغزل بخمسين غلاما ولما تجاوز العشرين .. وفى هذا الفتى يقول أبو نواس :

يا واصف الخمسين لو تعدل لكان فيهم اسمك الاول
وصفت خمسين فميزتهم وأنت أنت الطبيعة المغزل
جمال دع عنك لنا وصفهم أنت وربى منهم أجمل

وما كان من خيم^(١) أبي نواس - وهو المطبوع على العلانية والتحدى - أن يشهد البدعة ولا يتمادى فيها حتى يسبق مبتدعيها ، فالأفراط فى غزل المذكر لا يحسب كله على أبي نواس ولا يتخذ كله دليلا على نوازعه وأهوائه . ويصدق عليه فى هذه الخلعة ما يصدق على الشيطان فى أمثال الغربيين ، فليس هو من السواد الحالك بحيث يرسمه الرسامون ! ثم تنحصر الشهرة عن زياداتها وتثوب الطبيعة الى حدودها ، فتبدى لنا الحسن بن هانىء فى تلك الحدود على حقيقة شذوذه الجنسى الذى يفسر غزله بالمؤنث وغزله بالمذكر ، ويفسر تأثته فى صباه ويفسر مبالغته ودعواه ، وذلك هو شذوذ الطبيعة النرجسية التى مكنتها فيه يئته من أهله وعصره ومعاشره ..

(١) خيم : الخيم بالكسر : الطبيعة والسجية .

الجاحدون واللادينيون

عقيدة أبي نواس

ينقسم الناس الى مؤمنين وجاهدين ، أو كافرين وهذا تقسيم شائع في اصطلاح المباحث الدينية . ولكن الباحثين النفسيين يهتمهم الاستعداد النفسى وارتباطه بتركيب البنية وبواطن السريرة ، فهم يقسمون الناس على حسب هذا الاستعداد الى قسمين آخرين وهما اللادينيون واللادينيون ..

وهناك فارق أصيل بين الجاحدين واللادينيين :

فالجاهد قد ينكر دينا لم تطمئن سريرته الى عقائده وشعائره ويظل متفتح القلب للايمان بدين آخر ، وقد ينكر الأديان التى يعرفها جميعا ويجاهد فى انكارها بحماسة تشبه حماسة المؤمن المستبسل فى جهاده ، ولعله ينكر الأديان التى يعرفها تشوقا الى دين يسمو عليها ويرتفع لديه الى المثل الأعلى الذى يحلم به ويتمناه

فان لم يكن منكرا للدين على نحو من هذه الأنحاء فهو مهتم بالدين على أية حال ، وليس مكان الدين من باطنه خواء لا يتسع لايمان ولا انكار ولا مناقشة ولا انتظار

أما اللادينيون فهم مخالفون للجاهدين فى هذه الخلقة ، اذ هم لا يحفلون بالدين ولا ينشطون لقبوله ولا لانكاره ، ولا يشغلون عقولهم به لحظة عين كأنهم ولدوا قبل وجود الأديان فلم يسمعوا بها ولم يشعروا قط بخاطر من خواطرها ، فهم غرباء منقطعون عن هذا الشاغل القوى من شواغل الوجدان ان الجاحد قد يكون عدوا أو مهادنا أو على الحيطة بين معسكرين . أما اللادينى فليس هو بعدو ولا مهادن ولا محايد ، ومجمل القول فيه أنه غريب عن الميدان ..

وذلك كما تقدم فارق أصيل بين الجاحدين واللادينيين : فمن أى الفريقين كان الشاعر أبو نواس ؟

لم يكن عن يقين من اللادينيين ، لأنه لم ينقطع قط عن اللهج بالأديان وان كان ليلهج بها لهجا لا يطيب للمتدينين الصالحين

وليقل من شاء ما شاء فى زندقته ومجونه وعصيانته ولغو لسانه ، فانه بعد كل ما يقال من هذا القبيل بعيد جدا أن يحسب من اللادينيين الذين صغر مكان الدين من نفوسهم فلم يشغلهم منه شغل ولم يكن فيه ولا فى أهله ما يهمهم على وجه من الوجوه

واذا صرفنا النظر عن نوع اشتغاله بشأن الدين فليس بين شعراء العربية من عناه هذا الشأن كما عناه ... اذ هو لم يذكر قط مجلسا من مجالس لهوه ولا معرضا من معارض غزله الا أشار معه الى جوه الدينى أو علاقته الدينية ، بغير داعية من دواعى الموضوع أو المقام

ولو ذهبنا نستقصى هذه الاشارات لأوشكنا أن ننقل ديوان غزله ومجونه ، ولكننا نجتزئ بما يكفى للدلالة على هذه النزعة المعجية فى قريحته ووجدانه ..

منها فى موعد :

وظباء يتلون سفرا من الانجيل ل باكرن ————— حرة قربانا

ومنها :

صفراء مجدها مرازيها^(١) جلت عن النظراء والمثل
ومنها : خذها على دين المسيح اذ انهى عن شربها دين النبى محمد
ومنها : آذنتك الناقوس بالفجر وغرد الراهب فى العمر
ومنها : حراما كان أوله حلالا فضل الحل يذهب بالحرام
ومنها فى الغزل :

ياسمى الكلیم من كلم الله « وأدنى مكانه تقريبا
وشبيه الذى تلبث فى السج ن سينا وكان برا نجيبا
وابن قارىء القرآن غضا كما أنزل قد سمت قلبى التعذيا

(١) مرازيها : المرزبان يضم الزاي : الرئيس المقدم على القوم دون الملك عند الفرس ، والجمع مرازية .

ومنها في الغزل أيضا :

ويا مسكة عطار	الا يا قمر الدار
ويا وردة أشجار	ويا نفحة نسرین
يا زان اذا هم بأسفار	ويا عرش سليم
اذا يتلى بأسفار	ويا مزمور داود
يا ركن وأستار	ويا كعبة بيت الله
لك بين الخلد والنار	لقد أصبحت من حب

ولا نهاية لهذا المعنى الا باستنفاد خمرياته وغزلياته ، فهو لا ينى في قصائده هذه « يتحرش » بالدين والعبادة ، وينم بتحرشه هذا على العاطفة التي ينم عليها التحرش عادة ، وهي عاطفة ليست من العداء وليست من الازدراء ، ولكنها شغلان يشوبه العبت واهتمام لا يقوى على الجد ولا على الترك والنسيان ، وفهمه ميسور اذا قسناه على كل تحرش من قبيله في العواطف الانسانية .. فالتحرش قبل كل شيء اهتمام ..

مغالة بقية اللذة

وهذا الاهتمام بذكر الحرمات في شعر أبي نواس انما هو مغالة بقيمة لذته وتقريبه بين الشعور بها والشعور بالقداسة ، فليس هو في وعيه الخفى خطأ من قيمة الحرمات بل رفع لقيمة اللذات واعتزاز بمقاربتها لكان الصون من العبادة والتقوى

دخل أبو نواس السجن لاتهامه بالزندقة، وطال حبسه حتى زار السجن خال الوزير الفضل بن الربيع يتفقد السجناء ويتحرى أسباب سجنهم ، فسأل أبا نواس : أزنديق أنت ؟ قال : معاذ الله .. قال : لعلك ممن يعبد الكباش ؟ قال : أنا آكل الكباش بصوفه .. قال : فلعلك ممن يعبد الشمس ؟ قال : انى أترك القعود فيها بغضا لها فكيف أعبدها ؟ .. قال : أفتذبح الديك ؟ قال : ذبحت ألف ديك . لأن ديكاً مرة تقرنى فحلفت لا آخذ ديكاً الا ذبحته .. فسأله : ألك ذنب غير هذا ؟ قال : لا والله .. اتهمونى اتنى أشرب شراب أهل الجنة وأقام خلف الناس ... قال : —

وكانت فيه غفلة — فأنا أيضا أفعل مثل هذا فلماذا حبست ؟ ثم خرج الى الفضل فقال : ماتحسنون جوار النعم . تعجبون من لا ذنب له !

ولم يكذب الخبيث في جواب واحد ، فما كانت له نحلة من هذه النحل ولم يعتقد شيئا من عقائد الزنادقة في عصره عن جد ودراية ، ولكن الذين حبسوه على هذا لم يظلموه ولم يعتقلوه لغير جريمة فانه لم يدع تهمة تلحقه بالزنادقة الا تعرض لها وأورد نفسه كل مواردها ، وأعلن من كلامه وفعاله ما يشبهها ويستغنى عن الشهود والبينة عليها

على أن المحتسبين الموكلين بالزنادقة والمفسدين لا يعوزهم الشهود ممن كانوا يحبون الواقعة بالشاعر لسيئاته وحسناته على السواء ، فلم يكن أكثر من حساده بين أنداده كما قال محمد بن عمر « ولم يكن شاعر في عصر أبي نواس الا وهو يحسده ليل الناس اليه وشهوتهم لمعاشرته وبعد صيته وظرف لسانه » . وأشد من حساده سعيًا الى الواقعة به من كان يهجوهم أو يترفع عليهم أو يسخر منهم ، وهم غير قليلين

وأكثر منهم عددا من كانوا يشهدونه ويسمعونه وهو يجهر بالعصيان والدعوة اليه ، ويقول في بعض غزله :

يا أحمد المرتجى في كل نائبة قم سيدى نعص جبار السماوات
أو يقول في بعض مجونه يخاطب الفيلسوف ابراهيم النظام :
قولا لابراهيم قولا هترا^(١) غلبتنى زندقة وكفرا
أو يقول :

فدعى الملام فقد أطعت غوايى وصرفت معرفتى الى الانكار
ورأيت اتيانى اللذاذة والهوى وتعجلت من طيب هذى الدار
أحرى واحزم من تنظر آجل علمى به خبر من الاخبار
ما جاءنا احد يخبر انه في جنسة مذمات أو في نار
ومن لم يسمع شعره قربما سمع نوادره وشهد مسأخره ، وقد دخل
المسجد مرة وهو على أقبح السكر وسمع الامام يقرأ : « قل يا ايها
الكافرون » فصاح به من ورائه : لييك . وشرب في يوم مطير فوضع

(١) هترا : الهتر بالكسر : الكذب والسقط من الكلام والخطأ فيه .

قدحه تحت السماء فوقه فيه المطر وقال لمن حوله : « أتم تزعمون انه ينزل مع كل قطرة ملك ، فكم تراني أشرب الساعة من الملائكة » ثم شرب ما في القدح ..

ولعله كان يتحدث هنا وهناك بمذهب الثنوية ويروي كلامهم في الظلمة والنور ، ويهرف بما يعرف وما لا يعرف من هذه الأمور ^(١)

وقد مضى أبو نواس ومتهموه والشهود عليه ومضى عصره كله وبقي من أخباره انه كان يتزندق لأنه كان يتفلسف ، وأنه اطلع على علم النجوم ، وعلوم الاوائل من الهند والروم ، فزاغ عن اليقين ، ومرق من الدين ، اد كانت كلها علوما منقولة عن الكفرة والملحدين

أما أن أبا نواس سمع شيئا من تلك العلوم وألم بطرف من آراء القوم فذلك مفهوم من أقوال له نذكر منها :

تحييت والنجوم وقف لم يتمكن بها المدار
وهو من قول أهل الهند أن مدارات الافلاك يحيط بها مدار واحد ،
وأن الافلاك الصغار تدور وتعود الى المدار ، ولكن المدار الأكبر اذا انتهى
من دائرته توقف كما كان قبل الحركة ، فتكون القيامة ويعود الكون
سيرته الاولى دواليك

وربما كان من ذلك قوله :

حتى بدت حركات مخلوقة من سكون
وربما سمع كلاما في الطبائع على مذهب الاقدمين كما يؤخذ من قوله :

سخت من شدة البرودة حتى صرت عندي كأنك النار
لا يعجب السامعون من صفتي كذلك الثلج بارد حار
أو سمع أسماء الكواكب باليونانية وطوالها التي نقلها اليونان عن
العراق قديما فتحدث بها كأنها من المستحدثات :

صورة المشتري لدى بيت نورالدين والشمس أنت عند اقتصاب
ليس «زاویش» حين سار امام الخوت والبدر اذ هوى لا نصيب

(١) يهرف : هرف الرجل بصاحبه أطرا بالمدح اعجابا به . ومنه المثل :
لا تهرف بما لا تعرف .

منك أسخى بما تشج به الألف من عند اتقاص در الحساب
لا و « بهرام » تستقل به العة رب بالليل زائدا في الحساب
منك أمضى لدى الحروب ولاأهو ل في العين عند ضرب الرقاب

والمشترى وزاويش « زيوس » شيء واحد ، وبهرام أو المريخ سيار
يقال عنه في الأساطير انه اله الحرب ، والعقرب برج من البروج المتوهمة
في أفلك ، والمنجمون المخرفون يزعمون المزاعم عن مقارنات السيارات
والبروج ودلالاتها على الوفرة والرخاء أو على الحرب والقحط ... ومن
سمع الحذقة بهذه الأراجيف في نظم الشاعر خيل اليه أنها هي المعيات
التي قادته الى زندقته ومروقه ، ولا شأن لهذا بذلك الا أن يكون شأن
السعود والنحوس التي هذر بها المنجمون - في وادي النهرين على
الخصوص - من قبل التاريخ

ولعله سمع كلاما في الصفة والموصوف من قبيل قوله في حسن :

ان اسم حسن لوجهها صفة ولا أرى ذا في غيرها اجتماعا
فهي اذا سميت فقد وصفت فيجمع الاسم معنيين معا
الى نظائر من هذه الأقاويل يستطيع المتلقف أن يجمعها في بضعة آياء
وهو يجلس الى المتفهمين بها ممن تعمقوا فيها أو تخطفوها لما ثم لا يقال
عنه أنه عرف ما يناقض الدين أو يبيح المحظورات ، ويغري المرء بركوب
رأسه في الموبقات ..

ولقد كان ابراهيم النظام من أعلم أهل زمانه بهذا الذي يسمونه علوم
الأوائل وكان أبو نواس يحضر عليه فينهاه عن التبذل ويذكره الوعيد
ويقول له ان من ترقب وعد الله فعليه أن يحذر وعيده ، فلا يرعوى عن
لغو ومجونه حتى يئس منه فطرده من مجلسه فنظم فيه قصيدته التي
اشتهرت بالابراهيمية ومطلعها :

دع عنك لومي فان اللوم اغراء وداوني بالتى كانت هي الداء
وفيهما يسخر منه :

فقل لمن يدعى في العلم فلسفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء*
 لا تحظر العفو أن كنت امرأة أخرجاً فإن حظركه بالدين أذراً*
 فالذين اتهموا أبا نواس لم يظلموه ولم تعوزهم البيئات على دعوته
 للفساد ولعلمهم قد ظلموا الفلسفة وعلوم الأوائل فظنوها مدرجة المظلمين
 عليها إلى الزندقة ومذاهبها ، ولا زندقة هنا ولا مذاهب ولا شيء غير
 المجنون وحب الظهور ، وعند أبي نواس منه — كما أسلفنا — أسباب
 لم تكن عند أحد من معاصريه ! ولكنه لم يكن يعنيه من نفسه كما كان
 يعنيه من غيره على حد قوله في أبان اللاحق إذ كان يتظرف بادعاء
 الزندقة :

جالست يوماً أبا ناس	لأدر در أبان
ونحن حضر رواق الأ	مير بالنهـروان
حتى إذا ما صلاة الأ	ولسى دنت لاوان
فقام منذر ربي	بالبر والاحسان
وكلمنا قال قلنا	إلى انقضاء الأذان
فقال : كيف شهدتم	بذا بفسير عيان ؟
لا أشهد الدهر حني	تأمين العينان
فقلت : سبحان ربي	فقال : سبحان ماني (١)
فقلت : عيسى رسول	فقال : من شيطان
فقلت : موسى نجي الم	هيمن المنان
فقال : ربك ذو مة	ول اذن ولسان
أنفسه خلقتـه	أم من ؟ فقلت مكانى
وقلت : ربي ذو رحـ	ة وذو غفران
وقمت أسحب ذيلي	عن منكر القرآن
عن كافر يتمرى	بالكفر بالرحمن
يريد أن يتساوى	بالعصبة المجاز

(١) امام المانوية القائلين بالهين : اله النور ، واله الظلمة ..

أبو نواس ماجن

والمجان في عرف تلك البيئة هم الظرفاء ، المجنون هو الظسرف على اعتقادها وفي طبيعتها أبو نواس : نصيح له الأمير أبو العباس محمد أن يتوب عن المجنون فقال له : أما المجنون فما كل أحد يقدر أن يمجن ، وإنما المجنون ظرف .. ولست أبعد فيه عن حد الأدب أو أتجاوز مقداره ، أما المعاصي فاني أثق فيها بغفو الله عز وجل وقوله تعالى ، فوالله لو أن السندي يقول ما قاله الله عز وجل لو ثققت به ، فكيف يقول رب العالمين وهو يقول : « يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا » ..

والمصبة المجان الذين أراد أبان اللاحق أن يتشبه بهم هم طائفة من زملاء أبي نواس كحماد عجرد ووالبة بن الحباب ومطيع بن اياس وقاسم ابن زنقط وعيسى بن غصين وعبيد العاشقين الذي لقب بذلك لجمعه عاشقا ومملوكه وعاشقا وجاريتته ، وغيرهم ممن يكبرونه في السن أو يقاربونه ولكنه كان أشهرهم بمنحاهم في المجنون ، لأن دواعيه اليه أكثر وشعره فيه أسير ، فهو يحل من هذه الطائفة محل «الشخصية النموذجية» التي تقدم الكلام عليها ، معظمهم مثله من الموالي الذين فتحت لهم ثقافة العصر أبواب المعرفة ، وكلهم من الذين ابتلوا بمركبات النقص على اختلافها ، وليس فيهم من تسلطت عليه جميعا كما تسلطت عليه

فلا زندقة عند صاحبنا ولا فلسفة ، وكل ما عنده ولع بالظهور وضعف عن مقاومة الغواية والفجور

وبغير « دراسات نفسية » أو تحليلات عويصة في البواطن الخفية ، يمكن أن يكون انسان كأبي نواس منكرا للدين كله مواجهها الظلام المجهول بذلك الانكار ؟

ليست المعضلة في هذا السؤال معضلة الصلاح والبصيرة الروحانية ، وليس فقدان الصلاح والبصيرة الروحانية هو كل ما يلزم للانكار

والإصرار عليه ، فقد يكون المرء مجردا من صلاح الدين والخلق مقهور
الوجدان من البصيرة الروحانية ثم لا يقوى على مواجهة الموت الأبدى
والظلام السرمدي على يقين وإصرار ، ولا بد له في هذا الموقف من صرامة
واقترام يواجه بهما تلك المخافة التي لا مخافة مثلها في الحياة ولا بعد
الحياة ..

فهل طبيعة كالطبيعة النواسية تنبنى على ذلك المعدن الصلب الجسور
وهل عنده من الشكوك ما يتغلب في أعماق طبعه على تصلات الأمل
والرجاء ؟ ..

لو اجتمع شهود العالم ومعهم الأطباء النفسيون على زعم كذلك الزعم
لما اقنعوا أحدا بزعمهم الذي تنقضه كل لحمة وسداة في نسيج هذه
النفس الرخية المهلهلة . ولكن الأطباء النفسيين على الأقل لا يزعمون له
تلك القوة الصماء ، لأن طبيعته والقوة بأشكالها وأنواعها لا تتفقان
وأقرب من ذلك إلى المؤلف أننا أمام نفس ضعفت عن غواية الظهور
وغواية الفجور ، ولم تخل قط من شغل بالدين تتمسح به أو تتحرش به
كما تقدم في صدر هذا المقال ، وأعيتها عقيدة العزم والمناعة فاحتالت
حيلتها كي تنظر بعقيدة تركن إليها ، فوجدتها في نحلة من نحل عصرها ،
نخالها هي النحلة الوحيدة التي تكلف النواصي الإطلاع على مراجعها ،
أو على ما يلائمه من تلك المراجع فطابت له ، وتقبلتها سريره على الكره
منها ، لأنها لا تستطيع الخلو من عقيدة ولا تستطيع عقيدة العزم والمناعة
تلك هي نحلة « المرجئة » كما توسع فيها طلاب الرخصة^(١) من قبيل أبي
نواس وقد وسعوها بأهوائهم فوسعت لهم كل ما اشتهووه

نحلة المرجئة

نشأت فرقة المرجئة على اعتدال وحكمة في أيام الخلفاء الراشدين
واعتصم بها الذين كرهوا الخوض في الخلاف بين أجلاء الصحابة بعد
مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه فتركوا الأمر لله يحكم فيه يوم الدين

(١) الرخصة : التسهيل في الأمر والتيسير خلاف التشديد والاذن .

وسموا بالمرجئة لانهم لم يتعجلوا الحكم على فريق من الفريقين وجماع هذا الرأي في الشعر قول ثابت بن كعب الملقب بقطنة :

يا هند إني أظن العيش قد نفدا ولا أرى الأمر إلا مدبرا نكدنا
 انى رهينة يوم لست سابقه ألا يكن يومنا هذا فقد أفدا^(١)
 يا هند فاستمعى لى ان سيرتنا أن نعبد الله لم نشرك به أحدا
 ترجى الأمور اذا كانت مشبهة ونصدق القول فيمن جار أو عندا
 المسلمون على الاسلام كلهم والمشركون استنوا في دينهم قددا^(٢)
 ولا أرى أن ذنبا بالفسا أحدا في الناس شركا اذا ما وحدوا الصدا
 لا نسفك الدم الا أن يراد بنا سفك الدماء طريقا واحدا جددا^(٣)
 من يتق الله في الدنيا فان نه أجر الحساب اذا وفي الحساب غدا
 وما قضى الله من أمر فليس نه رد وما يقض من شيء يكن رشدا
 كل الخوارج مخط في مقالته ولو تعبد فيما قال واجتهدا
 أما على عثمان فأتهما عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا
 وكان بينهما شغب وقد شهدا شق العصا وبعين الله ماشهدا
 يعزى عليا وعثمانا بسعيهما ولست أدري بحق أية وردا
 الله يعلم ماذا يحضران به وكل عبد سيلقى الله منفردا

وكان ثابت بن كعب صاحب هذه القصيدة - وهو شاعر مجاهد - يعتدل على الجادة المثلى بين الطرفين : طرف الخوارج الذين يتهجمون على التكفير جزافا وطرف الطوائف المتنازعة التي كانت تخبط في التهم ذات اليمين وذات الشمال فلا تكفير لأحد آمن بالوحدانية والوحى المنزل ولا جدوى من الخبط بالتهم بين عثمان وعلى أو بين فرقة وفرقة من الصحابة ، وأمرهم جميعا موكل الى حساب الله

أما عصر أبي نواس فقد تباعدت فيه الفجوة بين الطرفين الى أقصى مداها ، فجزم الخوارج بتكفير كل من عداهم وحملوا السلاح لقتاله واعتبروا كل من خالف الدين في معصية ارتكبها كافرا مخلدا في العذاب ، وتعددت فرق المرجئة فنجم منهم من كاد يسقط الأوامر والنواهي ويقول

(١) أفد : قرب . (٢) قددا : صار القوم قددا تفرقت حالاتهم وأهواؤهم .
 (٣) جددا : الجدد بفتحيتين : وجه الأرض ، والأرض الصلبة المستوية ، ومنه المثل : من سلك الجدد آمن العثار .

ان الايمان عقيدة في القلب لا شأن لها بأعمال الجوارح ، فكل من اعتقد
الوحدانية والوحي المنزل فله جزاء المؤمنين يوم الحساب
وتقتبس هنا بعض ما كتبه الشهرستاني عن هذه الفرق في كتابه
الفصل في الملل والنحل » حيث قال في الجزء الرابع :

« .. غلاة المرجئة طائفتان : احدهما الطائفة القائلة بأن الايمان قول
باللسان وان اعتقد الكفر بقلبه فهو مؤمن عند الله عز وجل من أهل الجنة
وهذا قول محمد بن كرام السجستاني وأصحابه وهو بخراسان وبيت
المقدس . والثانية الطائفة القائلة ان الايمان عقد بالقلب وان أعلن الكفر
بلسانه .. فهو مؤمن كامل الايمان عند الله عز وجل .. وهذا قول أبي
محرز جهم بن صفوان السمرقندي مولى بنى راسب كاتب الحارث بن
سرنج التميمي أيام قيامه على نصر بن سيار بخراسان ، وقول أبي الحسن
على بن اسماعيل بن أبي اليسر الاشعري البصري وأصحابهما .. وقالت
طائفة الكرامية : المنافقون مؤمنون مشركون من أهل النار ، وقالت طائفة
منهم أيضا : من آمن بالله وكفر بالنبي صلى الله عليه وسلم فهو مؤمن
كافر معا ليس مؤمنا على الاطلاق ولا كافرا على الاطلاق ، وقال مقاتل بن
سليمان : - وكان من كبار المرجئة - لا يضر مع الايمان سيئة حلت أو
قلت أصلا ، ولا ينفع مع الشرك حسنة أصلا »
الى آخر هذه الأضاليل التي لا طائل تحتها ، فلا جرم يتلقف أبو نواس
رأيا كهذا ويتهافت عليه ليجمع بين لهوه واعتقاده الايمان ، وطفق ينادي
بانكار الشرك ولا يبالى ما عداه فقال :

تري عندنا ما يسخط الله كله

من العمل المردى الفتى ما خلا الشركا

وقال .

تري عندنا ما يكره الله كله

سوى الشرك بالرحمن رب المشاعر .

ثم تشبث بأن الكبائر لا تسلك صاحبها مع الكفار ولا تحرمه الرجاء في

عفو الله ، فكان من أقواله الكثيرة في ذلك :

وثقت بعفو الله عن كل مسلم
فلست عن الصبيان ما عشت مقصرا
ومنها : غاد المدام وإن كانت محرمة
فللكبائر عند الله غفران
ومنها : تكثر ما استطعت من الخطايا
فانك بالنسب ربا غفورا
تعض ندامة كفيك مما تركت مخافة النار السوررا
ومنها : خوفتماني الله ربكما وكخيفتيه رجائوه عندي
ومنها : يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر
ومنها :

لم - وعفو الله مبذول غدا عند الصراط
خلق الغفران إلا لامرئ في الناس خاط

ويبدو أن أقوال المرجئة هي أكثر المراجع التي تتبعها من أولها ، فإن
المرجئة في زمانه لم يصطنعوا الصمت والعزلة في معترك الفتن ، وإنما كان
هذا دين الصالحين من الصحابة أيام الشقاق بعد عهد عثمان بن عفان
رضي الله عنهم ، وأكثرهم في ذلك الوقت أخذوا بالحديث الذي رواه
أبو بكر عن النبي عليه السلام وفيه أنه « ستكون فتن ، القاعد فيها خير
من الماشي ، والماشي فيها خير من الساعي ، ألا فإذا نزلت أو وقعت فمن
كان له ابل فليلق بابل ومن كانت له غنم فليلق بغنمه ، ومن كان له
أرض فليلق بأرضه ... فقال رجل : يا رسول الله ! من لم تكن له ابل
ولا غنم ولا أرض ؟ قال : يعمد إلى سيفه فيدق على حده بحجر ، ثم لينج
إن استطاع النجاة

فألى هذا المسلك من مسالك المرجئة الأولين ثاب أبو نواس في أخريات
أيامه حين اضطرت نيران الفتن بين طلاب الخلافة ، فقال :

خل جنيتك لرام	وامض عنه يسلام
مت بداء الصمت خير	لك من داء الكلام
ربما استفتحت بالمر	ح مغاليق الحمام
رب لفظ ساق آجا	ل نيام وقيام
انما السالم من الج	م فاه بلجام
فاليس الناس علي الص	ة منهم والسقام
وعليك القصد ان ال	قصد أبقى للجمام
شبت يا هذا وما تتر	ك أخلاق الغلام
والمنايا آكلات	شاربات للانام

وليس من المستبعد أن كلامه الذي حمل على الإنكار إنما كان شططا في الدعوة إلى الأرجاء ، كقوله في الخلاف بين القدرية والجبرية :

يا ناظرا في الدين ما الأمر
ماصح عندي من جميع الذي

لا قدر صح ولا جبر
يذكر الا الموت والقبر

أو كقوله :

ما جاءنا أحد يخبر أنه في جنة مذمات أو في نار
إلى آخر الآيات ، إذ كيفما كان قوله فالمرجع في « الاستعداد » للعقيدة
إلى معدته وطبيعته ، وليس من معدن هذه الطبيعة أن تقدم على ظلام
المجهول منكرة ثابتة الجأش على الإنكار ، وليس من معدنها كذلك أن
تغلب العواية بمناعة العزم والتوبة بين وهن الطبيعة وقوة الأغراء . وما كان
من دأبه أن يخفي هذه النقيصة فيه لأن إخفاءها يسومه الكبت وهو لا يقوى
عليه ، وقد صدق وصف نفسه إذ قال :

ما أبعد النسك من قلب تقسمه	قطربل فقري بني فكلواذي
أو كما قال بعناد كمناد الأطفال :	
فلا والله لا والله	لا والله لا أقصر

ومن قبيله قوله :

غررت بتوبتي ولججت فيها
فشقى اليوم ثوبك ، لا أتوب

وهو يردد هذا الاعتراف على طريقته المطردة في جميع أحواله ، وهي
 « اتخاذ الفضيلة من الضرورة » كما يقول الغرييون في أمثالهم ، فإذا
 اعترف بنقيصته لاح من اعترافه بها كأنها مفخرة يباهى بها المحرومين منها ،
 وتلك خديعة الطبع الضعيف

أشعاره في النسك والتوبة

أما أشعاره في النسك والتوبة فلم يكن جادا فيها طول حياته الى ما قبل
 وفاته ، فمنها ما كان يصطنعه خوفا من الأمين حيث يصرح قائلا :

أطع الخليفة واعص ذا عزف

وتتح عن طرب وعن قصف

أو قائلا :

ولئن وعدتك تركها عدة انى عليك لخائف خلقى

أو قائلا :

ولهو لتأنيب الامير تركته وفيه لاله منظر وسماع

وقد يغلو متهمكما في وصف تقواه كما قال يخاطب الفضل ابن الربيع :

أنت يا ابن الربيع ألزمتنى النسك

لك وعودتيه والخير عيادة

فارعوى باطلى واقصر حبلى

وتبدلت عفة وزهادة

لو ترانى ذكرتك الحسن البصر

ى فى حسن سمته او قتادة

المسايح فى ذراعى والمصح

ف فى لبتى مكان القلادة

واذا شئت أن ترى طرفه تعجب

ب منها مليحة مستفادة

فادع بى لا عدمت تقويم مثلى
وتفطن لموضع السجادة
تر أنرا من الصلاة بوجهى
توقن النفس انها من عبادة
لو رآها بعض المرائين يوما
لاشترأها بعدها للشهادة
ولقد طالما شقيت ولكن
أدركتنى على يديك السعادة

على أنه كان يعلم أنه « نهى سياسى » لجأ اليه الخليفة دفعا لسوء
السمعة التى لصقت به من مصاحبته وقد يجهر بذلك فيصبح كالنفاقر
المغضب ..

أأمنها والله لم يمنع اسمها وهذا أمير المؤمنين صديقها
هذا أو يكون النظم فى النسك بابا من أبواب « العرض » وصدق
التمثيل ، ليقال انه قال فى النسك وهو ماجن مالم يحذقه النساك ... وروى
محمد بن صالح بن يبهس الكلأبى أن أديبا من بغداد أسمعته على سبيل
التنويه بشاعرية أبى نواس أبياتا فى الزهد و « ليس هو من طريقته .. »
وهذه هى الأبيات :

أخى ما بال قلبك ليس ينقى	كأنك لا تظن الموت حقا
الا يا ابن الذين فنوا وبادوا	أما والله ما ذهبوا لتبقى
وما للنفس عندك من مقام	إذا ما استكملت أجلا ورزقا
وما أحد بزاد منك أحظى	ولا أحد بذنبك منك أشقى
ولا لك غير تقوى الله زاد	إذا جعلت الى اللهوات ترقى

وكان أبو العتاهية يقول : سبقنى أبو نواس الى ثلاثة أبيات ووددت
لو أنى سبقته اليها بكل ما نظمته ، فانه أشعر الناس فيها منها قوله :
يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر
وقوله :

من لم يكن لله متهمًا لم يمس محتاجا الى أحد
وقوله :

إذا امتحن الدنيا لييب تكشف
له عن عدو في ثياب صديق
قال : وقد نظمت في الزهد ستة عشر ألف بيت ووددت لو أن أبا نواس
له ثلثهما بهذه الأبيات ، والبيت الأخير من قصيدة أولها :

ألا رب وجهه في التراب عتيق
ويارب حسن في التراب رقيق
ويارب حزم في التراب ونجدة
ويارب رأى في التراب وثيق
فقل للغريب الدار أنك راحل
الى منزل نائي المحل سحق

وحدث من شاهد أبا نواس لما حج مع جنان ، وقد أحرم أنه لما جنة
الليل جعل يلبي بشعره ويحدو بطرب في صوته حتى اجتمع به كل من
سمعه ، وجعل يقول :

هنا ما أعبدك مليك كل من ملك
لييك قد لييت لك لبيك ان الحمد لك
والملك لا شريك لك ما خب عبد سأل
الى آخر هذه التلية ، وقد أفسدها بما رواه عن نفسه في نظمه
اذ يقول :

وعاشقان التف خداهما عند التثام الحجر الأسود
فاشتفيا من غير أن يائما كأنما كانا على موعد
لولا دفاع الناس اياهما لما استفاقا آخر المسند
ظللنا كلانا سائر وجهه مما يلي جانبه باليد
تفعل في المسجد ما لم يكن يفعله الأبرار في المسجد
وتكاد نجزم بأنه كذب على نفسه ليستخرج من هذا الموقف ملحمة

تخليها ولا تراها تحدث في مزدحم الطواف ، وشبيه بذلك ماتحاكى به من شربه في ليلة العيد كأنما خاف على ما كان يسميه « جاهه » عند المجان ولا جاء له يخاف عليه بين أهل الصلاح وما لم يكن من شعر التوبة اطاعة لأمر أو ادلالا بقدرة فنية ، فلم يله خاطرة من خاطرات الندم تطيف بقلبه ساعة ثم تمحوها داعية من دواعي اللهو فينساها ..

ويسرى هذا على شعره كله في التوبة والعظة ما خلا تتفا يسيرة من نظمه في أخريات عمره قد تستشف منها خاطرة الأسف الصادق والحزن الخاشع ولم تأت هذه التوبة الا بعد مطاولة ومراوغة يستبقى بهما بقية الشباب

كان الشباب مطية الجهل	ومحسن الضحكات والهزل
كان الجمال اذا ارتدبت به	ومشيت أخطر صيت النعل
كان المشفع في مآربه	عند الفتاة ومدرك النبل (١)
والباعث والناس قد رقدوا	حتى آيت خليفة البعل
والأمرى حتى اذا عزمتم	نفسى اعان يدي بالفعل
والآن صرت الى مقاربة	وحططت عن ظهر الصبا رحلى
والراح أهواها وان رزأت	بلغ المعاش وقللت فضلى
وبعد يأس ما قال معترفا بتأخير التوبة بعد فوات حينها أو أحيائها :	
دب في الفناء سفلا وعلوا	وآراني أموت عضوا فعضوا
ذهبت شرقتى وجدة نفسى	وتذكرت طاعة الله نضوا (٢)
ليس من ساعة مضت بى الا	نقصتني بسرها لى جزوا
لهف نفسى على ليال وأيا	م سلكتهن لعبا ولهوا
قد أسأنا كل الاساءة - يار	ب - فصفحا غنا الهى وعفوا

ثم جعل يودع دنياه بأمثال هذين البيتين :

يا رب ان عظمت ذنوبى كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم

مالى اليك وسيلة الا الرجا وجميل عفوك ثم انى مسلم

(١) الثأر

(٢) شرقتى : الثمرة بالكسر من الشباب نشاطه . (٣) نضوا : النضيو : المهزول من الابل وغيرها .

وأبلغ منها قوله :

أرائى مع الأحياء حيا وأكثرى
على الدهر ميت قد تخرمه الدهر
فما لم يميت منى بما مات تاهض
فبعضى لبعض دون قبر البلى قسبر
فيارب قد أحسنت عودا وبدأة
الى فلم ينهض بإحسانك الشكر
فمن كان ذا عذر لديك وحجة
فمذرى اقرارى بأن ليس لى عذر

توبة أبي نواس

وقد تعقبنا الأطوار الجنسية في هذه الطبيعة وأثرها في صياها وكهولتها
فاذا مضينا الى نهايتها فقد تكون هذه التوبة المترددة أثرا من آثار الطور
الجنسى الأخير وهو سن الحرج climacteric الذى عاجله قبل أوانه لافراطه
في مهلكات النفس والجسد ، وهو القائل :

إذا كنت لا أنفك من طاعة الهوى

فإن الهوى يرمى الفتى يسوار

فأدركه ولما يبلغ الخمسين :

وإذا عددت سننى كم هى لم أجد

للشيب عذرا فى النزول برأسى

ومن آثار هذا الطور الجنسى الأخير أزمات قاسية على الشيوخ الذين
لم يتأهبوا له بشاغل من شواغل الحنان أو العمل النافع خاصا كان أو عاما
فيدفعهم الى الصغائر ويبدى منهم للناس بدوات يستغربونها منهم بعد
ما ألفوه من رصاتهم واتزانهم ، ويصاحب هذه الأزمات شىء من رد
الفعل وتغير المألوف فيرعوى السادر فى الغواية ويسدر فى الغواية من لم
يكن من أهلها ، وقد رأينا أثر هذه الأزمات فى لوثة أبى العتاهية وهوسه

(١). تخرمه : تخرم الدهر القوم استأصلهم واقتطعهم .

الذى أضحك منه صديقه مخارقاً فسأله بحق : مَنْ من النساك
والصالحين صنع بنفسه مثل هذا الصنيع ؟ .. فزميله النواسى قد أدركته هذه
الأزمة وجنحت به الى ذلك الوجوم أو السهوم الذى ترجم عنه بتلك
الآيات ولم تدركه قاسية عنيفة على مثال زميله لأنه لم يستقبلها فجأة
بالانتقال الى النقيض فيما بين عشية وضحاها

وان أبا نواس فى استعداده للعقيدة الدينية لخليق أن يكون من نماذج
طبيعته كما كان نموذجاً لها فى مياسم شتى ، فتلک طبيعة لا تصمد للانكار
ولا تقدر على ضبط الهوى ولا تخلو من مساورة الهواجس التى تحوم
بها حول الدين وتقارف بها حرمانه ، فاذا ترقبت التلعة من حولها فوجدتها
بعد لهفة عليها كانت لها تلك التلعة كخشبة الغريق تتشبث بها الى الرمح
الأخير ولا ترسلها من يديها



وليس حتماً لزاماً أن تترسل النفس المنحرفة أو الزائغة فى أهوائها ،
فان خصلة التسامى بالأهواء معهودة فى النفوس المبتلاة بالنشوز^(١) سواء
كانت من ذوات القوة والبأس أو ذوات الوهن والهزال ، ولا استثناء
للمنحرفين من خصلة التسامى بالعيوب التى تنشأ فى الطبع عيوباً فيجعلها
التسامى نقيبة^(٢) من أنبل النقائب وأشرفها ويتيح بها للانسان فرصة يعلو بها
على نزواته وصغائره ، وقد كان سقراط الحكيم مصاباً بهلواس السمع
وسبات اليقظة وكان يجب الفتى السييادس حب الأستاذية المرشدة ويحار
السييادس - لمجونه وخلاعته - فى معانى هذا الحب فيستدرج أستاذه
ويعرض عليه نفسه ، ويروى لنا أفلاطون فى « مائدته » بلسان السييادس
: إن هذا الفتى أولم لسقراط وليمة عامة ثم اجتهد أن يبيت معه على انفراد .
قال أفلاطون بلسانه « فلما أطفئت الأنوار وذهب الخدم لم أرد أن أحوم
مع سقراط حول الغرض وعولت على الافضاء اليه بما فى نفسى ، فناديت :
سقراط ! أناائم أنت ؟ فأجابنى : ما أبعدنى عن النوم ! قلت : أو تعلم بماذا
أفكر الساعة ؟ قال : لا ، بماذا تفكر ؟ قلت اننى أشعر أنك الوحيد من

(١) النشوز : نشزت المرأة على زوجها استعصمت وارتفعت عليه

وابغضته . (٢) نقيبة : سجيبة وطبيعة . والفعل الكريم .

عشاقى الجدير بى ، ولكنك تخاف أن تفصح عما فى قلبك ، فاعلم اذن أنتى لأرى من الحماسة ألا أستجيب لرغباتك .. فأصغى الى ثم أجابنى جواباً على نمطه وبسخريته المعهودة فقال : « انك ولارىب فتى لبق يا عزيزى السيادس .. ولا بد أنك ترى فى جمالا يفوق جمال جسدك وملامحك ، فان كنت ترى ذلك فأنت تحاول الساعة أن تبادلى سلعة بسلعة أغلى منها كثيراً ، وتخرج رابحاً من الصفقة .. » ومضى الفيلسوف يعلم الفتى مالا يعنمه من هداية جمال النفوس حين تواجه جمال الأجسام

وفى الأدب العربى أمثلة كثيرة لهذا الانحراف الذى اعتدل به التسامى غاية الاعتدال ، فالشاعر تقى الدين السروجى قد كان ولارىب على انحراف فى التكوين وقال الشهابى محمود انه كان مع دينه وورعه وزهده مغرماً بالجمال وكان يكره مكاناً فيه امرأة . ولما توفى حلف أبو محبوبه ألا يدفنه الا فى قبر ابنه وقال : كان الشيخ بهواه بالحياة وما أفرق بينهما بالممات ، وهذا لما كان يعلمه من دينه وعفته

وكان الشيخ مدرك الشيبانى صاحب « عمرو النصرانى » على هذا الخلق وهو صاحب القصيدة التى أولها :

من عاشق ناء هواء دان ناطق دمع صامت اللسان
موثق قلب مطلق الجثمان معذب بالصد والهجران

من غير ذنب كسبت يداه لكن هوى نمت به عيناه
شوقاً الى رؤية من أشقاه كأنما عاقاه من أبلاه
ومنها يستحلف بالمقدسات المسيحية :

يا عمرو بالحق مع اللاهوت والروح روح القدس والناسوت^(١)
ذاك الذى فى مهده المنعوت عرض بالنطق عن السكوت

بحق ما فى محكم الانجيل من منزل التحريم والتحليل
وخبّر ذى نبأ جليل يرويه جيل قد مضى عن جيل

(١) الناسوت : طبيعه الانسان .

الى آخر القصيدة التي كان أبناء جيله من المسلمين والمسيحيين
يتناشدونها ويتبركون بناظمها ولا تطوف بنفوسهم طائفة من الشك فيه
وفي معشوقه ..

وقبل هؤلاء ذاع في البصرة هوى الشيخ محمد بن داود الظاهري
لصاحبه محمد الصيدلاني وكلاهما مثل في العفة والادب . وكان ابن داود
هذا يتخرج في الدين حتى يحرم القياس ولا يقبل غير النص ، فلمسا نظم
هذين البيتين في محبوه :

مالهم أنكروا سوادا بخد به ولا ينكرون ورد العصون
ان يكن عيب خده بدد الش مر فعيب العيون شعر الجفون
قل له أنكرت القياس في الفقه وأثبتته في الشعر فقال : هي غلبة الحب !

ومثل هذا التسامي يخلق من النقص فضلا ومن الزيف اعتدالا ويعلم
النفوس من الرياضات ما ينفعها في تصفية الأخلاق وتركية الضمير ، وليس
أحد من ذوي العلل الكميئة أو العارضة بعاجز عنه اذا استجمع له نيته
وعقد عليه عزيمته ، ولكن هذه المحاولة أعجزت أبا النواس لأنه وقع من
مولده في بيئة تعالج التسامي على أسلوب آخر ، وهو اتخاذ الفضيلة
من الضرورة وطلب الوجاهة من وراء الشهرة المخالفة أو تحدى الرياء
بالاجترأ عليه ، وهذا بديل من التسامي في الواقع يجنح اليه من طبع عليه
ولم تسعده البيئة بمن يروض طبعه على أسلوب سواء

خاتمة

وبالكلام على عقيدة أبي نواس تنتهى هذه الرسالة ، وهى كما يرى القارىء من عنوانها ومحور بحثها مقصورة على الدراسة النفسية لا ترمى الى ترجمته أو نقد أدبه وشعره ولا تمس وقائع الترجمة أو شواهد الأدب والشعر الا لما فيها من الابانة عن طبيعته والاعانة على تفسيرها واستطلاع كوامنها ..

ومن الخير أن تقال كلمة الخير فى كل ترجمة وهى لا تكون خيرا الا أن تكون صدقا

وكلمة الخير التى تقال صدقا فى الشاعر أن الآفة عنده انما هى آفة الضعف والشعور المغلوب وليست آفة الشر والأذى . فلم يعرف عنه أنه سعى الى ايقاع الأذى بأحد أو أنه سر بوقوعه فيه ، وعرف عنه على خلاف ذلك أنه كان يسعى الى المساعدة والمؤاساة ما اقتدر عليهما ، فلما أشفق جماعة الشعراء الخاملين من الوفود على الخصيب بمصر وأبو نواس واقف عليه ، طيب خواطرهم واستعطف الخصيب عليهم ، ولم يطلب جائزته الا بعد الاطمئنان على جوائزهم ، ولما غضب الرشيد على الشاعر ابن مناذر وأمر بلطمة واقصائه وأقسم ليحرمنه جوائز الصلات فى حياته قصد اليه أبو نواس وترك بين يديه بدرة^(١) من المال لعله لم يكن يملك غيرها فى تلك الآونة ..

ولئن كان حبه مشوبا بشهواته لقد كان لمحاسن الدنيا حب مطبوع فى وجدانه وذوقه ، وكان له فى تلك المحاسن وصف يكسو الحياة زينة ويصقل ما اخشوشن من شدائدھا واكدارھا على نفوس الأحياء وبعد فهل زادت عيوب أبي نواس مقدار الرذيلة فى الدنيا ؟ ان المقدار يختلف هنا مع المقدرين ، ولكنهم لا يختلفون فيما زاده من ثروة النفس والبيان ..

(١) بدرة : البدره : كيس فيه عشرة آلاف درهم .

فهرس

١٠	شهرة أبى نواس
٢٩	الترجسية
٥٤	الجنس والنفس
٧٤	شخصية أبى نواس
١٠٠	الشيطان
١١٤	أبو نواس والخمر
١٢٧	الفن وأبو ناس
١٣٦	الحب والغزل
١٤٧	عقيدة أبى نواس
١٦٧	خاتمة

هَذَا الْكِتَابُ

يلمة لغلاف كتاب « أبو نواس » الحسن بن هانئ
تبدو براعة العقاد في التحليل النفسي عند دراسته
لشخصية أبي نواس التي يعتبرها شخصية فريدة
نموذجية . وهي في واقعها تختلف اختلافا كبيرا عن
شخصية أبي النواس التي استبغها عليه العامة وأشباه
العامة . ويرد تكوين هذه الشخصية الى عدة عوامل
منها « نرجسيته » التي غطر عليها ومنها نشأته وبيئته
التي عاش فيها . ومنها تكوينه الجسدي الذي يتلقى
فيه جمال وجهه ، وحسن بدنه ، مع لوازم أخرى مثل
اللفتة ، وريحة الصوت ، والصفرة أو الذؤابة المرسلة
من رأسه فجعلته في صغره شبيها بالبنات . ومن عناصر
هذه الشخصية تربيته البيتية ، فقد كان في كفالة أمه
التي أحاطته بكل وسائل التدليل لانه وحيدها . ولم
ينج من مغامز أخصامه الذين كانوا يعبرونه بها . أما
والده فكان مجهول النسب ، وكان هذا مغمزا آخر
يضاف الى ما نسبوه الى أمه مما ولد فيه عقدة نفسية
قادت الى التورط في مستنقع الإباحية المطلقة .

م . ل .



التمن ٤٠٠ ق . ل .

قرش جديد

٥٠٠

To: www.al-mostafa.com